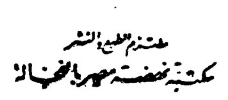
حياة المجتمعات

«٣»



دكتور تمام حسان



اهداءات ٢٠٠١

الدكتور/ القطب محمد طبلية

القاهرة

حياة المجتمعات

«٣»

أثر العلم في المجتمع

تأليف برتراند رسل

ترجمة

دكتور تمام حسان

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر بالفجالة
١٨ شارع كامل صدقي

مقدمة

بدأت الفلسفة فى أول أشكالها تساؤلا عن طبيعة ما خلقت منه الأشياء وعمن خلق هذه الأشياء جميعا . ومع أن الإجابة عن السؤالين كليهما تتطلب كلاما فيما وراء الطبيعة كان السؤال الأول منهما مفتاح الكلام فى الطبيعة والعلوم ، لأن الإجابة عليه كانت تدرر حول العناصر الأربعة : التى هى الماء ، والهواء ، والتراب ، والنار . ومن ثم رأينا الإجابات الأولى على هذا السؤال تقود الفلسفة إلى نظرية الجوهر الفرد أو نظرية الذرة كما أصبحت تسمى فى الوقت الحاضر .

ولكن الإجابة عن السؤالين كما ذكرنا تتطلب كلاما ميتافيزيقيا ، ولهذا نرى أن فيثاغوراس وأتباعه يقولون إن العدد هو أساس الكون ، وأصل مادته ، وإن عماد الكون هى الأضداد العشرة التى جاءوا بها . فكان تفكيرهم هذا خطوة تقدمية بالنسبة لمادية العناصر الأربعة ، بل كان أول خطوة فلسفية تتسم بالتفكير الرياضى المجرد . ذلك التفكير المجرد الذى نلمحه فى مثالية أفلاطون التى رأت أن المعرفة غير ممكنة إذا تعلقت بعالمنا هذا المحسوس المتغير الذى لا يبقى على حال ولا صورة وإنما تتعلق المعرفة بعالم المثل الخالد .

ولكنى أرسطو تلميذ أفلاطون كان من عشاق الملاحظة ، فكان أكثر ارتباطا فى تفكيره بهذا العالم الأرضى ، فتناول بملاحظته كل ناحية من النواحى التى شغلت الفكر الإغريقى من قبله ، فطلع على الناس بفلسفة لها طبيعة الموسوعة الفكرية ، كتب لها بعد ذلك الذيوع ، وانبنت عليها صروح العلم الإنسانى من بعد فى مختلف العصور .

ثم جاء من بعده عصر الفلسفة الخلقية : الأبيقورية ، والرواقية ، واللاأدرية ، فربطت بين الفكر الفلسفى وبين الشئون الإنسانية لأول مرة . وذلك ربط له أشباهه فى الفلسفات السياسية ، والاجتماعية ، والنفسية فى القرنين التاسع عشر والعشرين .

فالصيغة العامة للفلسفة إذاً اختلفت باختلاف الزاوية التى تتجه إليها . فاتجهت إلى المادة حينا ، وإلى ماوراء المادة حينا آخر ؛ إلى الفكر الرياضى حينا ، وإلى الشئون الإنسانية حينا آخر ؛ إلى الوصف حينا كما فى فلسفة أرسطو ، وإلى التخطيط حينا آخر كما فى جمهورية أفلاطون ؛ والفلسفة فى كل أولئك نظرة شاملة للكون ، تراه نظاما متكاملا ، تفسره نظرية يبنيها الفيلسوف ، ويحكم الربط بين أجزائها ، ويحسن صياغة العلاقات فيها ، كعلاقة الخالق بالمخلوق ، وعلاقة المادة بالعقل ، وعلاقة الكائنات بالمقولات ، وهلم جرا . يبنى الفيلسوف نظريته هذه دون خضوع منه لأى اعتبار غير الاعتبارات الفكرية المنطقية الخالصة ، ويلقى فى سبيل ذلك أحيانا عنت السلطة ومرارة العذاب ؛ حدث ذلك فى كل عصر من عصور الفلسفة ، حتى فى العصر الإغريقى نفسه .

على أن شيوع الأديان السماوية ، وسلطانها على النفوس والقلوب ، وضع الفلسفة الحرة فى وضع لا تحسد عليه ، ورأى الفلاسفة ، تحت دواعى التسلط من ناحية ، والعجز الفكرى من ناحية أخرى ، أن يسوقوا الفلسفة فى خدمة الدين ، وأن يجعلوها تفسيرا عقليا للقضايا الغيبية التى جاء بها الدين ، فبدا الأمر كأن الفلاسفة أرادوا لما خاطب الدين به العقيدة أن يكون المخاطب به هو العقل . فجعلوا من ذلك فلسفة ، وأصبحت هذه الفلسفة متكلما رسميا باسم الدين .

ومن هنا انحطت عن المستوى القديم ، فكانت فلسفة لا تستغنى عن ياء النسب الملحقة باسم مذهب ، أو دين من الأديان ، أو مظهر من مظاهر هذا الدين . مثال ذلك

الفلسفة الأفلاطونية الحديثة، والمسيحية، واليهودية، والإسلامية، والمدرسية. ومن ثم كان أى رجوع بالفلسفة إلى مستوى شبيه بما كان لها فى العهد اليونانى معناه العودة إلى حرية الفكر، وإن كان ذلك يقتضى مخاصمة الدين . وكان ذلك هو الذى حدث فعلا فى أيام النهضة وما بعدها ، إلى وقتنا الحاضر . حيث نرى الفلسفة تخلصت تقريبا من طابع النقل أولا (أنظر ص ٧ وما بعدها وص ٩٣) ومن سيطرة العقيدة ثانيا .

ومع تقدم الزمن بالفلسفة لم تصبح هى وعاء العلوم كما كانت فى أيام أرسطو ، وإنما انشعبت العلوم منها ، وتركتها فى حظيرة الغيبيات ، تشغل نفسها بها، وتطيع الدين فيها؛ فأصبح اسم الفلسفة ردحا من الزمان مقصورا على التفكير فى الميتافيزيقا، وكان كل ما عدا ذلك يسمى علما. ولعل آخر ما انشعب من الفلسفة من هذه العلوم هو علم النفس الحديث .

على أن هذا الفهم للفلسفة لم يكتب له الخلود، وإنما أصبح معنى الفلسفة فى أيامنا هذه يتناسب مع معناها القديم، وإن كان يختلف عنه. فإذا كانت الفلسفة فى القديم نظرة شاملة للكون تراه نظاما متكاملا تفسره نظرية يبنيها الفيلسوف . . . إلخ ، فهى فى يومنا هذا طريقة يربط بها الفيلسوف بين نتائج العلوم فى صورة مركبة متكاملة للكون ، الذى نعيش فيه . فالفيلسوف القديم كان يبنى نظريته ، ولكن الفيلسوف المحدث يبنى نتائج العلوم فى صورة فلسفة عامة شاملة ؛ والذى جاء بهذا الفارق هو استقلال المنهج العلمى عن الفلسفة فى معناها الضيق . ومن ثم أصبح من المقبول إلى حد ما أن نصف الفلسفة الحديثة بأنها علمية ؛ لأن المرء إذا لم يكن عالما فى أيامنا هذه فلن يستطيع أن يكون فيلسوفا، ولعل هذا يفسر لنا ظاهرة غريبة نلمحها فى فلاسفة العصر الحاضر ؛ هى أنهم جميعا من بين المشتغلين بالعلوم، لا بالآداب، ولا بالديانات ، ولا بتاريخ الفلسفة نفسها .

والذى يبدو لى أن علماء الطبيعة وعلماء الرياضة من بين هؤلاء هم أسعد الناس حظاً، لما لأصحاب الطبيعة من فرصة النظر فى الكون، ولما لأصحاب الرياضة من فرصة النظر فى المنطق، والفكر المجرد. ومجال نشاط الأولين هو الكون المحسوس، ومجال نشاط الآخرين هو الفكر المجرد. الأولون يونيُّون، والآخرون فيثاغوريّون، والكل بعد ذلك يوجهون أكبر اهتمام إلى الفرد من نواحيه النفسية، والعقلية، والاجتماعية، والبيئية. حتى إن الفلسفة الحاضرة، إلى جانب وصفها بأنها علمية، نستطيع أن نصفها بأنها إنسانية، تساق لخدمة الفرد والمجتمع، أكثر مما تعنى بالشطحات الفكرية الجامحة، والخيالات الشعرية.

وأول ما نلاحظه فى الفلسفة الحديثة أن عصر النظم الفلسفية الشاملة قد انتهى إلى غير رجعة، فلن يستطيع فيلسوف بعد الآن أن ينمق فى نفسه نظاما كونيا فلسفيا، أو نظاما من أى نوع، إلا إذا كان مدينة فاضلة، أو نظرية علميه عامة، كنظرية النسبية. وكان الفيلسوف الإنجليزى الكسندر آخر من حاول هذه المحاولة « الكيخوطية ».

إن أهم ما شغل الفلسفة الحديثة إلى الآن هو نظرية المعرفة epistemology. وقد تشعبت المذاهب فى هذه الدراسة، فكان بين أصحابها الحسيون وعلى رأسهم لوك، وهم يقولون إن المعرفة أساسها الحواس، والنظريون وعلى رأسهم كانت الألمانى ويقولون إن المعرفة أساسها النظر، والمثاليون، وعلى رأسهم هيجل، وقالوا إن الفكر يمكن أن يكشف بنفسه عن العالم المادى والروحى كليهما. والماديون، وفيهم شوبنهاور الذى جعل الإرادة العامة هى الحقيقة الكونية المطلقة، ونيتشه الذى قال إن الحق من صنع الإنسان، وعضده فى ذلك البرجماتيون الذين يرون قيم الأشياء بحسب نتائجها، ومنهم الإيجابيون، الذين يقولون إن المعرفة تخضع للملاحظة المباشرة، وهم أكثر

الفلاسفة قربا من المنهج العلمي ، والواقعيون المحدثون، الذين يرون استقلال موضوعات المعارف الإنسانية ، ولا سيما الموضوعات التي تخضع للإدراك الحسي .

في ضوء هذا التمهيد المختصر نقدم « برتراند آرثر وليم رسل » الفيلسوف الإنجليزي المعاصر الذي ترجمنا عنه هذا الكتاب الذي بين أيدينا[1].

ولد برتراند رسل عام ١٨٧٢ ، في بيت من بيوت الأرستوقراطية البريطانية ، فكان جده اللورد رسل من كبار الساسة في المجتمع الإنجليزي .

وكان جده من قبله سادس دوقات بيد فورد . تلقى برتراند رسل ثقافة منزلية على يد طائفة من المربيات ، فلم يدخل المدارس العامة ، حتى التحق بجامعة كمبردج ، فحصل على امتياز من المرتبة الأولى في الفلسفة ، وانتخب عام ١٨٩٥ زميلا لكلية ترينيتي التي تعلم فيها ، ولكنه كان قد ترك كمبردج عام ١٨٩٤ ، وعمل ملحقا بالسفارة البريطانية في باريس ، وذهب إلى برلين عدة شهور لدراسة الديموقراطية الاشتراكية الألمانية ؛ ثم عاد إلى انجلترا ، فكرس كل جهده لدراسة الفلسفة . وكان لزيارته لمؤتمر الرياضيات في باريس مع صديقه ألفريد وايتهد نتائج خطيرة ، إذ أن رسل أعجب كثيرا بمقدرة تلاميذ الرياضي الإيطالي بيانو ، ومن ثم بدأ في دراسة مؤلفات هذا الرياضي . وبعد ذلك بقليل أخرج أول كتاب هام له تحت عنوان **The Principle of Mathematics** عام ١٩٠٣ ، وتعاون مع وايتهيد على التطور بالمنطق الرياضي لبيانو وفريج ؛ فنشرا معا أول عمل مشترك لهما تحت عنوان **Principa Mathematice** عام ١٩١٠ .

وقد كان يحدث أحيانا أن يترك برتراند رسل الاشتغال بالفلسفة لينغمس في السياسة ، على نحو ما حدث حين بدأ مستر تشمبرلين حملة الإصلاح الضريبي .

---

[1] سيرته هنا ملخصة عن دائرة المعارف البريطانية .   (المترجم)

وفى عام ١٩١٠ عين برتراند رسل مدرسا فى الـكلية التى تخرج فيها . وبعد أن بدأت الحرب العالمية لعب دورا هاما فى نشاط « جماعة معارضى التجنيد » ، فحكم عليه بغرامة تبلغ مائة جنيه، باعتباره مؤلف رسالة فى كتيب يصف بها مسيحيا من العهود الماضية يدفعه ضميره إلى الاعتراض على الحرب **Chirstian Conscientiou objector** ، ولهذا حجز على مكتبته وفاء لهذه الغرامة ، فاشتراها صديق ؛ ولـكن الـكثير من كتبها القيمة لم يعثر عليه. وعزلته الـكلية من التدريس بها، فعرضت عليه جامعة هارفارد وظيفة ، ولـكنه لم يستطع مع تعنت السلطات أن يستخرج جواز سفر إلى أمريكا ، وعزم على إلقاء سلسلة من المحاضرات ، فمنعته السلطات العسكرية. وقد نشرت هذه السلسلة فى أمريكا فيما بعد تحت عنوان « المبادىء السياسية » عام ١٩١٨ . وفى عام ١٩١٨ نشر مقالا فى جريدة التربيونال ،فحكم عليه بالحبس ستة أشهر، فأخرج فى السجن كتابه القيم « مقدمة لفلسفة الرياضة » عام ١٩١٩ . أما كتابه « تحليل العقل » الذى ظهر فى عام ١٩٢١، فقد كان نتيجة لبعض المحاضرات التى ألقاها فى لندن ، ونظمها ، وتبرع للإنفاق على تنظيمها بعض أصدقائه .

ولقد زار روسيا عام ١٩٢٠، ليدرس البلشفية فى موطنها الأصلى ، فخرج من هذه الزيارة بكتاب « النظرية والتطبيق فى البلشفية » ، وفى نفس هذه السنة زار الصين ، ليلقى محاضرات فى جامعة بكين ، وأصيب فى ربيـع ذلك العام بالالتهاب الرئوى، فوصل إلى الموت أو كاد ، حتى إن بعض الجرائد اليابانية أعلنت موته فعلا ثم عاد فى عام١٩٢١، وبدأ بعد عودته يتـكسب من إلقاء المحاضرات، ومن الصحافة ، ومن نشر الـكتب الشعبية مثل «ألف باء الذرة» ، و «ألف باء النسبية» ، و « عن التربية » . أما أوقاته فى الصيف من كل عام فقد خصصها لـكتابة الـكتب الجدية ، كالمقدمة التى كتبها للطبعة الثانية من **Principa Mathematica** ، و « تحليل

المادة» ، و «تخطيط الفلسفة» ، و «الصوفية والمنطق» ، و «الزواج والأخلاق» .
وأنشأ فى عام ١٩٢٩ مدرسة بالاشتراك مع زوجته لتعليم صغار الأطفال .

ولما ظهرت الإذاعة البريطانية ، استعانت بالفيلسوف الإنجليزى فى إذاعة محاضرات عامة ، فى صورة سلاسل تحمل كل منها اسما خاصا ، أشهرها محاضرات ريث وكان عنوانها « السلطة والفرد » . ويظهر أن عادة تسمية المحاضرات باسم خاص استهوته خارج الإذاعة ، إذ أن أحد فصول هذا الكتاب : « هل فى طوق المجتمع العلمى أن يستقر ؟ » كان فى صورة محاضرة اسمها « محاضرة روبرت لويد » (أنظر ص ١٠٠) . ومما كتبه برتراند رسل من الكتب القيمة ذات الدلالة المباشرة على فلسفته كتاب « المعرفة الإنسانية » .

قلنا إن عهد تكوين النظم الفلسفية المتكاملة قد انتهى وولى ، كما أن الكلام فى الميتافيزيقا لم يعد أحب موضوع إلى الفلاسفة ، ولا أكثر موضوعاتهم أمناً وثقة ، وأن أفضل الموضوعات وأكثرها وضوحا فى نظر الفلاسفة هو ربط النتائج العلمية بعضها إلى بعض ، ثم ربطها بعد ذلك بالإنسان ، وبكونه الذى يعيش فيه . وإذا كانت نظرية المعرفة قد تسلطت على فلسفة القرون القريبة الماضية ، فما ذلك إلا لارتباطها بالإنسان وبكونه كذلك ، وقد رأينا أن برتراند رسل قد جعل من بين كتبه كتابا اسمه « المعرفة الإنسانية » . ولكن الجانب الميتافيزيقى من فلسفة رسل ليس أثبت جوانبها ، ولا أكثرها إثارة للإعجاب . والقسط الذى لم يتغير من هذه الفلسفة هو منطق برتراند رسل الواضح السهل ، الذى يقنعك ، ويستولى على نفسك . اقرأ ص ٧ ومابعدها ، واستمع إلى رسل وهو يبرر الملاحظة ، ويزرى بالرواية باعتبارها طريقة فلسفية ، أو اقرأ له فى ص ٢٢ ، حين يحاول أن يقول إن القنبلة الذرية لم تكن شر ما منحه العلم للإنسانية ، بل إن استغلال القطن الذى يعتبر نعمة كان شرا منها ، أو فى ص ٣٦ ومابعدها ، حين يتكلم عن شرور التنظيم ، أو ص ٦١ ، فى الكلام

عن النظرة إلى الفرد ، أو ص ٨٨ ، حين يتكلم عما يستطيع العلم أن يقدمه للإنسانية ، أو ص ١٠٨ ، فى إمكان جعل المجتمع مستقرا من حيث السكان . إن وضوح أسلوب برتراندرسل ، وقوة عارضته فى الكتابة ربما كان مرجعهما إلى أنه تلقى ثاقفة خاصة لم يقيدها شكل رسمى معين ، ولم يأت عليها عنت القواعد والمعلمين . على أن ما يجب أن ننبه إليه هو منهجه المنطقى الخاص الذى جعله يرفض أن يضع فلسفته تحت عنوان المثالية أو الواقعية ، وإنما يسميها « ذرية منطقية » ، أى أنها منطقية يكشف المنطق فيها عن كل ما فى دقة الذرة . ولكن طلاب الفلسفة بالرغم من ذلك يضعونه فى صف الواقعيين المحدثين ، جنبا إلى جنب مع ج . ا . مور ، وقد سبق أن أشرنا إلى هذا المذهب .

وأهم ما فى منهج رسل المنطق أنه يخلص المنطق من محدودية الشكل النحوى ، أى أنه لا يخضع الحمل المنطقى للإسناد النحوى ، وإنما يفكر فى هذا الحمل تفكيراً يخضع للترتيب الرياضى . ولعل هذه إحدى حسنات الرياضة إلى برتراندرسل ، وتفسير لكون معظم فلاسفة العصر الحاضر هم من الرياضيين ، أو علماء الطبيعة ، على نحو ما قررنا من قبل . وقد وصل رسل من استخدام هذا المنهج إلى أن ما يتكون منه العقل وما تتكون منه المادة هما من نفس النوع ، وأن الفرق بين العقل والجسم ليس إلا فرقا فى التكوين لا فى المكوّنات .

وكتاب رسل هذا الذى بين أيدينا مجموعة من المحاضرات ، ألقى بعضها فى انجلترا ، وبعضها الآخر فى أمريكا ، ولاشك أن المؤلف لا بد أن يكون قد قام بعمل تعديل فى هذه المحاضرات ، ليجعلها تبدو فى كتاب متكامل ؛ وتلك مهمة أشبه ما تكون بعملية الإخراج الفنى الذى يتم فى التمثيلية أو الفلم الناطق ؛ ذلك لأن الصدفة لا يمكن أن تجعل محاضرات كهذه مختلفة الزمان والمكان متكاملة إلى هذا الحد . ولكننى لا أستطيع أن أنكر أنه ربما تم لها نوع من التعمّد قبل إنشائها ، لأن

اشترا كها جميعا فى الـكلام عن أثر العلم فى المجتمع يبعد كذلك أن يتم بمحض الصدفة . دعنا إذاً ننظر فى فصول هذا الـكتاب ، ونخرج منها بعرض سريع لآراء برتراندرسل فى العلم والمجتمع .

أول ما نلحظه فى برتراند رسل انتفاعه الذى لا حد له بنتائج العلوم المختلفة . وتلك — إذا كنت تذكر — هى السمة التى تتسم بها الفلسفة الحديثة ، فهى تنتفع بنتائج العلوم ، فتربط بينها فى صورة متماسكة ، تصل بالفيلسوف إلى فهم معين لناحية من نواحى الـكون الذى نعيش فيه ، وأول جملة فى هذا الـكتاب الذى بين أيدينا تشير إلى ما نصف به برتراند رسل من انتفاعه بنتائج العلوم : «وجد الإنسان منذ مليون سنة ، وعرف الـكتابة منذ ستة آلاف عام ، والزراعة لمدة أطول ؛ ولـكن ربما لا تطول كثيراً » . ويقول فيما بعد فى ص ٢ : «إن دراسة علم الإنسان قد جملتنا على وعى تمام بجمهرة المعتقدات الزائفة التى تؤثر فى حياة الـكائنات الإنسانية غير المتمدينة » . ويقول فى ص ٢ : «إن الخسوف والـكسوف كانا من أوليات الظواهر الطبيعية التى تسربت من الخزعبلات إلى العلم » . ويقول فى ص ١٠ : « ويقول القانون الأول من قوانين الحركة : إن الجسم المتحرك يستمر فى حركته فى نفس الإتجاه بنفس السرعة حتى يوقفه شىء ما » . ويقول : ص ١٣ : «إن تأثير العلم على وجهة نظرنا فى مكان الإنسان فى الـكون كان من نوعين متعارضين ، فلقد انحط وعلا به فى نفس الوقت : انحط به من ناحية التأمل ، وعلا به من ناحية العمل » ويقول : ص ١٧ « ولقد كان للداروينية آثار كثيرة على نظرة الإنسان إلى الحياة والعالم ، ... » ويقول فى ص ١٨ : « ويجب أن نعترف بأن الوراثة لها نصيب فى تـكوين البالغ الصالح ، وأن الثقافة ليست العامل الوحيد الذى يمكن اعتباره فى هذا الشأن » ويقول : ص ٢٩ « ولقد نظرت حتى الآن فى المناهج المشتقة من الطبيعة والـكيمياء . وقد ظلت هذه حتى وقتنا الحاضر أعظم المناهج أهمية ، ولـكن

علم الحياة ، وعلم وظائف الأعضاء ، وعلم النفس يحتمل بمرور الوقت أن تؤثر فى الحياة الإنسانية بقدر ما أثرت الطبيعة والكيمياء » . ويقول : ص ٨٣ « وتشتق هذه الفلسفة إيحاءاتها من العلم فى اتجاهات مختلفة .... » ويقول : ص ٨٧ « وهنا نلخص الآن الزيادة التى جعلها العلم ممكنة فى السعادة الإنسانية ، وما يحتمل أن يقويه العلم من الشرور القديمة » .

ويقول ص ١٠٠ : « وأنا استعمل كلمة مستقر كما تستعمل فى الطبيعة . فالخذروف مستقر أوثابت ما دام يدور بسرعة أكبر من معدل معين ، ثم يصير غير مستقر ويسقط . والذرة التى لا تشع مستقرة ، حتى يمسك بها أحد علماء الذرة . والنجم مستقر للايين السنين ، ثم ينفجر يوما ما ؛ وآمل بهذا المعنى أن أسأل عما إذا كان المجتمع الذى نكونه مجتمعا مستقراً » . كل أولئك دلالة على اتجاهات الفلسفة الحديثة ، وتمسكها بنتائج البحوث العلمية المختلفة ، دون الجرى وراء إنشاء نظم تأملية شاملة لكل ظواهر الكون ، كما كان الأمر فى القديم . ثم هو دلالة على اتجاه برتراند رسل فى منهجه الفلسفى الذى لم يخرج على ماجريات المنهج الفلسفى الحديث فى عمومه ، كما وصفناها من قبل .

وعنوان الكتاب نفسه يدل على أن فلسفة رسل لم تعد ، كما كانت الفلسفة ، ولا تزال فى بعض صورها ، فلسفة ميتافيزيقية خالصة ؛ بل أصبحت فلسفة تتجه إلى الحياة اليومية للإنسان : إن انصراف الأبيقوريين والرواقيين واللا أدرية عن الميتافيزيقا الإلهية والكونية « الكوزمية » إلى الميتافيزيقا الإنسانية الخلقية كان له أثره فى فلسفة عصرنا الحديث ، من حيث انصراف فلاسفة المدرسة الحديثة إلى ميتافيزيقا إنسانية أيضا اتجهت حينا إلى الأخلاق ، وأحيانا إلى المنطق ، وأحيانا أخرى إلى نظرية المعرفة ، وليس برتراند رسل نفسه براء من هـــذا النوع من أنواع الميتافيزيقا الإنسانية . غير أن اهتمام برتراند رسل بهذا لم يمنعه من أن ينغمس فى دراسة المجتمع

والبيئة فى صورتيهما العمليتين ، وأن يشبع بذلك رغبة فى نفسه كان قدماء الفلاسفة يشبعونها بالكلام فى المدن الفاضلة : « ولقد كان تكون المدن الفاضلة موضع احتكار فى الماضى ، باعتباره مهربا غيبيا لهؤلاء الذين لم يستطيعوا أن يجابهوا العالم الحقيقى . ولكن التغير الاجتماعى فى وقتنا الحاضر أصبح سريعا ، وإلى حد كبيروحيا من إيحاءات أمانى المدن الفاضلة ... ص ٧٠ » أما العنوانات الداخلية فى الكتاب فيكفى أن تنظر فيها لترى أنها حتى فى أكثر صورها تجردا تبدو كأنها خلقت مع الإنسان من طين : العلم والتقاليد — الآثار العامة للمنهج العلمى — المنهج العلمى تحت الحكم الطائفى — الديموقراطية والمنهج العلمى — العلم والحرب — العلم والقيم — هل فى طوق المجتمع العلمى أن يستقر ؟ كل هذه العنوانات تجعل المرء يتساءل إن كانت الدراسة التى بين أيدينا الآن فلسفية ذات طابع اجتماعى ، أو اجتماعية ذات طابع فلسفى . ولكن المسئول عن ذلك فى النهاية هو الطابع البراجماتى فى تفكير برتراند رسل ، فقد كان من أتباع المذهب البراجماتى ذات يوم .

والموقف النفسى لبرتراند رسل فى هذا الكتاب هو الموقف الناقد الساخر المتشائم . وهو لا يعفو عن النازية ، ولا يتقبل الشيوعية ، حتى إذا ما ذكر الديموقراطية نقدها ، وسخر منها ، وتشاءم لها ، ولكنه يضطر أخيرا أن يصف لها بعض المقويات ، ويعتذر عنها . والحق إن موقفه السياسى والدينى يتضح فيهما أن برتراندرسل انجليزى ، نشأ فى ظل نظام ديموقراطى ، وأنه يعتنق ، أو كان يعتنق ذات يوم ، الدين المسيحى .

وكان أحرى برجل فيلسوف مثله أن يحترس من انعكاس شخصيته على أفكاره التى أراد لها أن تكون موضوعية خالصة ، حتى وإن كان هذا الانعكاس كما يبدو هنا غير متعمد . ولكن منذا الذى يستطيع فى النهاية أن يتحكم فيما ليس بالإرادى ؟

أما أسلوب برتراند رسل ففيه خصائص الوضوح المنطقي، والسهولة، والنكتة الهزلية التي تأتي من حين إلى آخر. فأما وضوحه المنطقي فيأتي في الغالب من أنه مغرم بالإجمال قبل كل تفصيل؛ فيعطي قارئه الصورة مجملة، حتى إذا ما استوعبها فصل له فصولها، وحللها، ونقدها. تلمح ذلك في كل فصل من فصول الكتاب. وأما سهولة أسلوبه، فلأنك حين تقرؤه لا تكاد تتوقف عند جملة فتبدىء في تخريجها وتعيد، كما يحدث لك مع بعض الكتاب، وإنما تقرؤ له عبارة سلسلة مفهومة برغم كلامه أحيانا في شئون بعيدة عن الثقافة التي توصف بأنها عامة. وأما جنوحه إلى الدعابة والنكتة الهزلية الخفيفة فمن أمثلته، مع الاعتذار إلى اختلاف الأذواق الفكاهية، ما تجده في ص ٧، ٨، ١٢، ١٣، ٩٤، ٩٥، ١١٠.

وتبقى أخيرا كلمة أحب أن أقدم بها هذا الكتاب إلى قرائه. هذا كتاب كتبه فيلسوف، وترجمه رجل عادي متواضع، يعترف بالعجز، ويرجو أن يكون قد بلغ من إحسان الترجمة بعض ما بلغه المؤلف من إحسان التفكير والعرض، فإن يكن أخطأه التوفيق، فالكمال لله وحده ؟

المعادي في يوليه ١٩٥٨.

تمام حسان

الفصل الأول

العلم والتقاليد

وجد الإنسان منذ مليون سنة ، وعرف الكتابة منذ ستة آلاف عام ، والزراعة لمدة أطول إلى حد ما ؛ ولكن ربما لا تطول كثيرا . أما العلم باعتباره عاملا قويا فى تحديد معتقدات المثقفين، فقد وجد منذ ثلثمائة سنة ،وباعتباره منبعا للمنهج الاقتصادى منذ مائة وخمسين عاما . وقد برهن فى هذه المدة القصيرة على أنه قوة ثورية قوية إلى حد لا يمكن تصديقه . فإذا تأملنا حداثة عهد وصوله إلى هذه القوة وجدنا أنفسنا مرغمين على اعتقاد أننا فى بداية تغييره للحياة الإنسانية . أما آثاره فى المستقبل وما ستكون عليه ، فذلك أمر من أمور التخمين ؛ ولكن دراسة آثاره حتى الآن ربما جعلت التخمين أقل اعتمادا على الصدفة .

وآثار العلم أنواع متعددة مختلفة جدا . فثمة آثار عقلية مباشرة ، كإبطال كثير من المعتقدات التقليدية ، واعتناق معتقدات أخرى تسببت عن نجاح الطريقة العلمية . ثم هناك آثار فى منهج الصناعة والحرب . ثم ما ينتج بصفة رئيسية عن المناهج الجديدة من تغيرات عميقة فى النظم الاجتماعية تستتبع تغيرات سياسية مماثلة . وأخيرا تنمو فلسفة جديدة مشتملة على فهم متغير لمكان الإنسان من الكون ، نتيجة للسيطرة الجديدة على البيئة سيطرة جاءتنا من المعرفة العلمية .

وسوف أعالج بالترتيب هذه النواحى من آثار العلم فى حياة الإنسان . سوف أعد أولا أثره العقلى المحض ، باعتباره عاملا فى إضعاف المعتقدات التقليدية التى

لا أساس لها كالسحر . وسأنظر من بعد فى المنهج العلمى ، وعلى الأخص منذ الثورة الصناعية . وسأعلن أخيرا عن الفلسفة التى نتجت عن انتصارات العلم ، وأدعى أن هذه الفلسفة إذا لم تبطل فستوحى بشكل من أشكال الحمق ربما أدى إلى نتائج مخربة

إن دراسة علم الإنسان قد جعلتنا على وعى تام بجمهرة المعتقدات الزائفة التى تؤثر فى حياة الكائنات الإنسانية غير المتمدينة . فينسب المرض إلى السحر ، وكساد المحصولات إلى الآلهة الغاضبة أو الشياطين الشريرة ، ويظن أن التضحية بالإنسان تسبب النصر فى الحرب، والخصب فى الأرض ، وأن الخسوف والكسوف والشهب تنبىء بالفاجعة، وحياة الإنسان البدائى محوطة بالمنوعات tabus ، ونتائج اقتراف الممنوع يظن أنها مخيفة .

وبعض أجزاء هذه النظرة البدائية قد تلاشى منذ زمن فى الأقاليم التى بدأت المدنية فيها؛ فثمة آثار من التضحية بالانسان فى أسفار العهد القديم كالذى فى قصة ابنة يفتاح Jephthah مثلا ، وقصة إبراهيم وإسحق ، ولكن اليهود أهملوا هذه التضحية حين بدأوا تاريخهم. وأهملها الإغريق فيما حول القرن السابع قبل الميلاد. ولكن القرطاجنيين كانوا لا يزالون يعملون بها فى الحروب البونية Punic . وإن تلاشى التضحية بالانسان فى بلاد البحر المتوسط لا ينسب إلى العلم ، ولكن ربما نسب إلى المشاعر الإنسانية . وكان العلم من ناحية أخرى عاملا رئيسيا فى إبطال الخزعبلات البدائية .

إن الخسوف والكسوف كانا من أوليات الظواهر الطبيعية التى تسربت من الخزعبلات إلى العلم . فكان فى وسع البابليين أن يتنبأوا بهما ، ولو أن تنبؤاتهم بشأن كسوف الشمس لم تكن صحيحة دائما . ولكن الكهنة احتفظوا بهذه

المعرفة لأنفسهم ، واستخدموها وسيلة لتقوية قبضتهم على الأهلين . فلما تعلم الإغريق ما اضطر البابليون إلى تعليمه ، وصلوا بسرعة إلى اكتشافات فلكية مذهلة . ويذكر ثوقيديديس . Thucydides كسوفا للشمس ، ويقول إنه حدث مع ظهور القمر الجديد؛ ويلاحظ فى كلامه أن ذلك على مايبدو هو الوقت الوحيد الذى تحدث فيه هذه الظاهرة . وكشف الفيثاغوريون بعد ذلك الوقت بقليل عن النظرية الصحيحة لكسوف الشمس وخسوف القمر . واستنتجوا أن الشمس كروية من شكل ظلها على القمر .

ومع أن الكسوف والخسوف قد دخلا فى نطاق العلم بواسطة خيرة العقول ، فقد مضى وقت طويل قبل أن تصبح هذه المعرفة مقبولة بصورة عامة . وكان ميلتون لا يزال يتكلم عن أوقات تكون الشمس فيها .

فى ظلام مهلك ضل به نصف هذا الكون فى تيه الكسوف
وترى فيه ملوكا خشعا واجفى الألباب من خوف الصروف

ولكن هذا عند ميلتون لم يكن إلا رخصة شعرية .

وقد كان ذلك قبل أن تدخل الشهب فى نطاق العلم بوقت طويل ؛ فالحقيقة أن دخولها فى العلم لم يتم إلا بعمل نيوتن وصديقه هالى . ولقد استدل على موت قيصر بشهاب ، كما يقول شكسبير على لسان كالپورنيا .

ولست ترى النبوءة فى شهاب بعادية المنون على الفقير
وتشتعل السماء القدس ناراً إذا حم القضاء على الأمير

ويؤكد الأب بيد[1] أن « الشهب تنبىء بالثورات على الملوك والطاعون

---

(١) مؤرخ وقسيس انجليزى (٦٧٢ أو ٦٧٣ — ٧٣٥) يعرف باسم The Venerable أو Beda أو Baeda مؤلف كتاب Ecclesiatical History (المترجم)

والحرب والرياح أو الحرارة » . ويعتبر جون نوكس[1] الشهب دلالات على غضب الله ، ورأى أتباعه أنها إنذار للملك بأنه يجب أن يقضى على فرقة المعتسله Paptists » . وربما كان شكسبير يعتقد اعتقادات خرافية فيما يختص بالشهب . ولم يكف المثقفون عموما عن اعتقاد أنها ذات دلالات نبوئية إلا حين وجدوا أنها تخضع لقانون الجاذبية وأن لها مدارات يمكن معرفتها بالحساب .

وفى عهد شارل الثانى أصبح الرفض العلمى للخزعبلات شائعا بين المثقفين ، ورأى شارل الثانى أن العلم يمكن أن يكون له حليفا ضد « المتعصبين » ، كما كان يسمى هؤلاء الذين حزنوا على فقد كرومويل ،ومن ثم أنشأ الجمعية الملكية ، وجعل العلم محببا إلى الناس . وانتشرت الثقافة بالتدريج إلى الطبقات الدنيا من البلاط . ولم يكن مجلس العموم حتى ذلك الوقت ، يضارع الملك فى تقدمه الفكرى . ولقد بحثت لجنة من مجلس العموم بعد طاعون وحريق فى سوء الحظ الذى نزل بالبلد ، ثم نسبت ذلك عموما إلى غضب الله ، ولو أن سبب هذا الغضب لم يكن واضحا . وقررت اللجنة أن أعظم ما سبب غضب الله لم يكن إلا أعمال المستر توماس هوبز . وقد دل هذا الإجراء على كونه ذا أثر لأنه لم يحدث أبدا منذ ذلك التاريخ أن وقع طاعون أو حريق عظيم فى لندن . ولكن شارل الذى أحب هوبز لأن هوبز علمه الرياضيات أحس بالضيق، وهو على أى حال لم يتعلم من البرلمان أن يكون على علاقة وثيقة بالله .

وفى ذلك الوقت بدأ الاعتقاد فى السحر ينظر إليه باعتباره من الخزعبلات . وكان جيمز الأول متعصبا فى اضطهاد الساحرات ، كما كانت رواية ما كبث لشكسبير قطعة من الدعاية الحكومية؛ ولا شك أن هجو الساحرات فى هذه الرواية

---

(١) مؤرخ سكوتلندى (١٥٠٥ - ١٥٧٢) م . (المترجم)

جعلها أكثر قبولا باعتبارها تملقا للملك . حتى « بيكن » بدا كأنه يعتقد في السحر . ولم يحتجّ حين أقر البرلمان وهو عضو فيه قانونا بتشديد العقوبة على الساحرات . ووصل الأمر إلى القمة في عهد الكومونولث ، لأن المتطهرين Purirans على الخصوص هم الذين اعتقدوا في قوة الشيطان .

ومن أجل ذلك نرى أن حكومة شارل الثاني ، على الرغم من عدم مخاطرتها بإنكار احتمال وجود السحر ، كانت أقل غيرة في البحث عنه من سابقاتها ؛ وكانت آخر محاكمة للسحر في انجلترا عام ١٦٦٤ ، حين كان السير توماس براون شاهدا ضد الساحرة . وتنوسي القانون الذي حرّم السحر بالتدريج ، حتى ألغي عام ١٧٣٦ ؛ ولو أن جون ويسلي استمر في عام ١٧٦٨ في تعضيد الخرافات القديمة . وبقيت الخرافات في اسكتلندة وقتا أطول وكانت المحاكمة الأخيرة في عام ١٧٢٢ .

جاء انتصار الإنسانية والتعقل في هذه المسألة نتيجة انتشار وجهة النظر العلمية، ولم يكن مرجعه إلى حجة خاصة ، بل إلى استحالة طريقة التفكير التي كانت طبيعية قبل عصر التفكير المنطقي، الذي بدأ في عهد شارل الثاني . كما يجب أن نعترف أن مرجع ذلك من جهة أخرى كان إلى الثورة على النظام الخلقي الذي بدا في منتهى القسوة .

واضطر الطب العلمي في البداية إلى مواجهة الخزعبلات الشبيهة بهذه التي أوحت بالسحر وحين بدأ فيساليوس Vesalius في تشريح الجثث انزعجت الكنيسة، ولكن الذي أنقذه من الاضطهاد مدة من الزمن هو الامبراطور شارل الخامس الذي كان من طلاب التداوي V. Ieludinarian . وكان يعتقد أنه ليس في طوق أي طبيب غيره أن يحفظ عليه صحته . بيد أنه بعد أن مات الإمبراطور اتجه الاتهام إلى فيسالوس بأنه كان يقطع أوصال الناس قبل أن يغشاهم الموت .

وأمر بالتكفير بأن يحج إلى الأرض المقدسة ، فتحطمت به السفينة،ومات بسبب التعرض للأحوال الجوية . وبالرغم من عمله وعمل هارفي وأعاظم الرجال الآخرين، ظل الطب خرافيا فى معظمه . وظن فى الجنون على الأخص أنه مسبب عن التلبس بالأرواح الشريرة، ولهذا تم العلاج منه بتعريض المجنون لأنواع القسوة التى انعقد الأمل على أن يضيق بها الجنّ . وحين جن جورج الثالث عولج بهذه الطريقة . وبقى جهل جمهرة الشعب أطول من ذلك . ولقد خافت إحدى خالاتى على زوجها أن يصاب بالتيفوس ، بسبب الانزعاج الفكرى الذى اعتراه حين ساءت العلاقة بينه وبين وزارة الحربية . ولم يكد الطب يصبح علميا قبل أيام ليستر وباستير . وإن تخفيف الآلام الانسانية الناتج عن تقدم الطب ليعلو على كل تقدير .

ولقد جاءت نظرة جديدة إلى العالم نتيجة لعمل عظماء الرجال فى القرن السابع عشر ؛ وكانت هذه النظرة — ولم تكن الأدلةالمعينة — هى التى سببت تلاشى الاعتقاد فى التشاؤم والتفاؤل والسحر والتلبس بالشياطين وهلم جرا . وأظن أنه كان ثمة ثلاثة مكونات ذات أهمية خاصة للنظرة العلمية فى القرن السابع عشر .

١ — أن تقرير الحقائق يجب أن يبنى على الملاحظة لا على الرواية غير المؤيدة .

٢ — أن العالم غير الحيوانى نظام متفاعل فى نفسه ، مستبق لنفسه ، وتنطبق كل التغيرات فيه مع قوانين الطبيعة .

٣ — أن الأرض ليست مركز الكون ، وأن الانسان ربما لا يكون الهدف من وجودها ،إذا كان لوجودها أى هدف . وفوق ذلك أن فكرة « الهدف » فكرة لا فائدة منها من الناحية العلمية .

ومن هذه الأمور يتكون ما يسمى « بالنظرة الميكانيكية » التى ندد بها

رجال الكنيسة ؛ وقد أدت هذه النظرة إلى توقف الاضطهاد، وإلى الوقوف موقفا أكثر إنسانية . وهى الآن أقل قبولا مما كانت ، وقد بعث الاضطهاد من جديد . أما بالنسبة لمن يعتبرون تأثيرها هداما ؛ فأقترح أن يتجه انتباههم إلى هذه الحقائق .

ويجب أن يقال شيء عن كل واحد من مكونات النظرة الميكانيكية التى ذكرناها .

١ — الملاحظة فى مقابل الرواية :

يبدو فى نظر المثقفين فى العصر الحديث بوضوح أن الحقائق إنما تتأكد بالملاحظة ؛ لا بالرجوع إلى الروايات القديمة . ولكن هذا فهم حديث لم يكد يظهر جميعه قبل القرن السابع عشر . ولقد رأى أرسطو أن النساء عندهن عدد من الأسنان أقل مما عند الرجال؛ وبالرغم من أنه تزوج مرتين لم يخطر على باله أبدا أن يحقق مقالته هذه بالبحث فى فم زوجتيه . ولقد قال كذلك إن الأطفال يصيرون أصح إذا تم الحمل بهم حين تكون الريح ريح الشمال . ويستنتج المرء أن زوجتى أرسطو كان عليهما أن تجريا إلى الخارج ، وتنظرا إلى اتجاه الريح كل مساء ، قبل الذهاب إلى الفراش . ويقول إن الرجل الذى يعضه كلب مسعور يصاب بالجنون ؛ ولكن كل حيوان سيصاب كذلك (Hist- An., 704a) وأن عضة القنفذ Shrewmouse خطرة بالنسبة للخيل ، وعلى الأخص إذا كانت هذه الفأرة حبلى (ibid , 6046) ، وأن الفيلة المصابة بالأرق insom: ia يمكن أن تشفى منه بدعك أكتافها بالملح وزيت الزيتون والماء الساخن (ibid., 605 a) وهلم جرا . ولكن المعلمين الكلاسيكيين Classical dons الذين لم يلاحظوا أبدا أى حيوان غير القط والكلب يظلون يثنون على أرسطو لأمانته فى الملاحظة

ونتج عن غزوة الاسكندر للشرق طوفان ضخم من الخرافات وفد إلى العالم الهليني . وبدا ذلك على الخصوص بالنسبة للتنجيم الذى اعتقد بصحته كل الوثنيين المتأخرين تقريبا . ولقد ندّدت به الكنيسة لا على أساس علمى ولكن لاستلزامه الخضوع للقدر . وفيما كتبه القديس أوغسطين على أى حال حجة ضد التنجيم يقتبسها من أحد الملحدين الوثنيين النادرين . تلك الحجة هى أن التوأمين غالبا ما يتخذان مهنا مختلفة ، وذلك أمر ما كان يجب أن يحـــدث لو أن التنجيم كان حقا .

ولقد أصبح الاعتقاد فى التنجيم من علامات المفكرين الأحرار فى أيام النهضة (renaissance)، وكان اعتقادهم بصحته مبنيا على أن الكنيسة تنددبه . فلم يكن المفكرون الأحرار حتى ذلك الوقت أكثر التصاقا بالعلم من خصومهم فيما يختص باستشارة الحقائق التى تقع فى نطاق الملاحظة .

ولا يزال أكثرنا يعتقد أشياء كثيرة ليس لها فى الحقيقة أساس إلا تأكيدات الأقدمين . ولقد قيل لى دائما إن النعامة تأكل المسامير ، ومع أننى تحيرت فى كيفية عثورها على المسامير فى الغابة لم يخطر على بالى أن أشك فى القصة . وأخيرا اكتشفت أن القصة جاءت مما كتبه بلينى Pliny ، وأنها لا ظل لها من الحقيقة .

ويجرى تصديق بعض الأشياء لأن الناس يحسون أنها يجب أن تكون صادقة ، وفى مثل هــذه الحالات يصبح من الضرورى إيجاد أدلة ضخمة لإبطال الاعتقاد ؛ مثال ذلك انطباعات الأم . فالمفروض أن أى انطباع هام على الأم فى أيام الحمل سيؤثر فى الطفل ، ولهذا الظن ما يؤيده فى الكتب المقدسة ، فأنت تذكر كيف حصل يعقوب على أبقار بُلْق . وإذا سألت أية امرأة ليست مشتغلة بالعلم أو ذات

صلة بمن يشتغلون به ، فسوف تفيض عليك بجمهرة من الحوادث لتدلل على هذه الخرافة . أنصت ؛ إن ثمة السيدة فلانة الفلانية التي رأت ثعلبا واقعا فى شرك ، وقد ولد طفلها وله رجل ثعلب . هل تعرفين السيدة فلانة ؟ . لا . لست أعرفها تماما ولكن صديقتي السيدة فلانة تعرفها . فإذا أصررت على ذلك سألت هذه السيدة فلانة التي ستقول : « لا أنا لا أعرف السيدة فلانة الفلانية ولكن السيدة كذا تعرفها » وربما قضيت عمرك فى البحث عن السيدة فلانة الفلانية ولكنك سوف لا تجدها . فهى خرافة .

ويحدث نفس الموقف فيما يختص بوراثة الصفات المكتسبة ، فثمة دافع قوى إلى الاعتقاد فى هذا، حتى إن البيولوجيين يجدون أكبر صعوبة فى إغراء الناس باعتقاد العكس .ولقد أخفقوا فى روسيا فى إقناع ستالين ، واضطروا فى النهاية إلى التخلى على الروح العلمية فى هذه المسألة .

وحين كشف منظار جاليليو عن أقمار جوبتر رفض المتشددون أن ينظروا فيه ؛ لأنهم علموا أنه لا يمكن أن يكون ثمة أجسام كهذه ، ومن ثم لابد أن يكون المنظار خداعا .

واحترام الملاحظة فى مقابل الرواية صعب ، بل ربما يقول المرء إنه مناقض للطبيعةالانسانية . ويصر العلم على ذلك ؛ وكان هذا الإصرارهو منبع أعظم المعارك القاسية بين العلم والرواية . ولا يزال ثمة نواح كثيرة جدا لم يتم فهم الدرس فيها . فالقليل من الناس يمكن أن يقتنع بأن عادة ضارة كحب الظهور مثلا exhibitionnism لا يمكن أن يبرأ منها صاحبها بالعقوبة . ومن السار أن نعاقب هؤلاء الذين يسببون لنا صدمة ، ولا نحب أن نعترف أن التلبس بهذا السرور مرغوب فيه دائما من الناحية الاجتماعية .

٢ — استقلال العالم الفيزيقى :

ربما كانت أقوى النظرات التحررية solvent التى سبقت الحياة العلمية هى أول قانون للحركة ، والعالم مدين به لجاليليو ، ولو أنه سبق بإرهاص من ليوناردو دافينتشى .

ويقول القانون الأول من قوانين الحركة : إن الجسم المتحرك يستمر فى حركته فى نفس الاتجاه بنفس السرعة حتى يوقفه شىء ما . وقد كان يظن قبل جاليليو أن الجسم غير الحى لا يتحرك بنفسه ؛ فاذا تحرك فسوف يصير بالتدريج إلى السكون . وقد ظن أن الأجسام الحية فحسب هى التى يمكن أن تتحرك بدون عون مساعد خارجى . ورأى أرسطو أن الأجرام السماوية تدفعها آلهة ، أما على الأرض فإن الحيوانات تستطيع أن تبدأ فى الحركة ، وأن تهب الحركة للمواد غير الحية . وقد رؤى أنه كان ثمة أنواع خاصة من الحركة تعتبر « طبيعية » بالنسبة للمواد غير الحية . فالأرض والماء يتحركان بالطبع إلى أسفل ، ويتحرك الهواء والنار إلى أعلا ؛ أما غير هذه الحركات البسيطة « الطبيعية » فيتوقف كل شىء على الدفع من ناحية الكائنات الحية .

وطوال مدة شيوع هذا الرأى ظلت الطبيعة باعتبارها علما مستقلا غير ممكنة ؛ لأن العالم الفيزيقى لم يكن يُظَن أنه قائم بذاته من الناحية السببية . ولكن جاليليو ونيوتن برهنا فيما بينهما على أن حركات الكواكب والمواد غير الحية على سطح الأرض تتم طبقا لقوانين الطبيعة ، وما دامت قد بدأت فسوف تستمر إلى غير حد . وليس ثمة من حاجة إلى العقل فى هذه العملية ، ولم يزل نيوتن يرى ضرورة وجود خالق من أجل بدء العملية ، أما بعد ذلك فقد تركها لتعمل طبقا لقوانينها الخاصة .

ورأى ديكارت أن أجسام الحيوانات أيضا ،لا الجادات فحسب، تحكمها قوانين الطبيعة . ولربما لم يوقفه إلا اللاهوت عن أن يقول نفس الشيء عن الأجسام الإنسانية . وقد خطا الملحدون الفرنسيون فى القرن الثامن عشر بهذا خطوة أخرى . فالعلاقة بين العقل والمادة فى رأيهم تقف فى مقابل ما قال به أرسطو والمدرسيون : لأن العلل الأولى عند أرسطو كانت عقلية دائما ؛ كالذى يحدث حين يقود السائق قطار بضاعة فتنتقل الحركة والدفع من عربة إلى عربة . ورأى الماديون فى القرن الثامن عشر على العكس أن كل العلل مادية ، ونظروا إلى الأحداث العقلية باعتبارها نتاجات عرضية غير فعّالة :

٣ — خلع الغرض :

رأى أرسطو أن العلل كانت ذات أربعة أنواع ؛ ولكن العلم الحديث لايسمح إلا بواحد فقط من هذه الأنواع الأربعة . ولسنا بحاجة الى الاهتمام باثنتين من علل أرسطو أما الأثنتان اللتان تهماننا فهما « الصورية أو الفاعلة » effecient و « الغائيّة » final . فالعلة الصورية أو الفاعلة هى التى يجب أن نسميها «العلة» ببساطة ، أما العلة الغائيّة فهى « الغرض » : وهذا التفريق صحيح فى الشئون الإنسانية ؛ افرض أنك رأيت مطعما على قمة جبل، فالعلة الصورية أو الفاعلة هنا هى حمل المواد إلى أعلا الجبل وترتيبها على هيئة بيت، أما العلة الغائيّة، فهى تهدئة الجوع والعطش عند عابر السبيل . والسؤال عن « العلة » بقولك « لماذا » ؟ فى الشئون الإنسانية يجاب عنه بالطبع كقاعدة بذكر العلة الغائيّة أكثر مما يكون بذكر العلة الصورية أو الفاعلة . فاذا سألت : « لماذا يوجد مطعم هنا ؟ » فسيكون الجواب الطبيعى « لأن كثيرين من الجياع العطاش يمرون بهذه الطريق » . ولكن الجواب بالعلة الغائيّة مناسب حين تتعلق المسألة بالإرادة الإنسانية فحسب ، فإذا

سألت : « لماذا يموت كثير من الناس بالسرطان؟ » فسوف لا تحصل على جواب واضح ، ولكن الجواب الذى تريده يكون بذكر العلة الصورية أو الفاعلة .

وهذا الغموض فى كلمة « لماذا ؟ » أدى بأرسطو إلى التفريق بين العلة الصوريةأوالفاعلة والعلة الغائيّة . فقد رأى ، كمالا يزال كثير من الناس يرى مثله ، أن هذين النوعين يمكن وجودهما فى كل مكان،وكل ما هو موجود يمكن إيضاحه من جهة بالحوادث السابقة التى أنتجته ومن جهة أخرى بالغرض الذى يؤديه . ولكن بالرغم من أنه لا يزال فى إمكان الفيلسوف أو عالم اللاهوت أن يقول إن لكل شىء « غرضا » ، ظهر أن « الغرض » ليس فكرة نافعة حين نبحث فى القوانين العلمية .

وقد قيل فى الإنجيل إن القمر قد خلق لينير بالليل ،ولكن العلماءمهما كانوا متدينين لا يعتبرون ذلك إيضاحاعلميا لأصل القمر . أو إذا رجعنا إلى السؤال عن السرطان ، فربما اعتقد العالم بصفته الشخصية أن السرطان قد جاءعقوبةعلىذنوبنا، ولكنه باعتباره رجل علم يجب أن يتجاهل هذه الوجهة من وجهات النظر . ونحن نعلم « بالغرض » فى الشئون الإنسانية ، وربما افترضنا أن ثمة أغراضاً كونية ، ولكن الماضى هو الذى يحدد المستقبل فى العلم ،ولا يحدد المستقبل الماضى . ولهذا لا ترد «العلل الغائية» فى الكلام العلمى عن العالم .

ولقد كان عمل داروين فاصلا بهذه المناسبة . فالذى فعله جاليليو ونيوتن من أجل الفلك فعله داروين من أجل علم الحياة . وإن تكيّف الحيوان والنبات بكيفية بيئته كان موضوعا مفضلا عند المتدينين من متأملى الطبيعة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وقد جرى إيضاح هذا التكيّف بالغرض الإلهى . حقيقة إن الإيضاح كان أحيانا غريبا . فلو أن الأرانب كانت من علماء اللاهوت

فقد تظن أن التكيف الجميل لابن عرس من اجل قتل الأرانب لا يكاد يكون امراً من الأمور التى تستحق الشكر . وقد كانت ثمة مؤامرة صمت حول الدودة الشريطية ،ومع هذا كان من الصعب قبل داروين ان يفسّر تكيف الأحياء بكيفية يبتها بنير أغراض الخالق .

إن الذى جعل من الممكن تفسير التكيف دون الكلام عن « الغرض » لم يكن حقيقة التطور ، بل كان الميكانيكية الداروينية كما تتضح فى تنـــازع البقاء وبقاء الأصلح . فالاختلاف الاعتباطى واختيار الطبيعة لا يستخدمان إلا العلل الصورية . وذلك هو السبب فى أن كثيرين ممن يقبلون الحقيقة العامة للتطور لايقبلون رأى داروين فى كيفية حدوثه . فلا يقبل صمويل بتلر ولا برجسون ولاشو ولا ليسينكو أن يخلعوا الغرض عن عرشه ولو أن الغرض عند ليسينكو ليس غرض الله ولكنه غرض ستالين وهذا هو الذى يحدد الوراثة فى قمح الشتاء .

٤ — مكان الإنسان فى الكون

إن تأثير العلم على وجهة نظرنا فى مكان الإنسان فى الكون كان من نوعين متعارضين ، فلقد انحط وعلا به فى نفس الوقت : انحط به من ناحية التأمل ،وعلا به من ناحية العمل . وقد انتهى الأثر الأخير إلى أن ينيف على سابقه ولكن كليهما كانا هامين . وسوف أبدأ بالأثر التأملى .

وللحصول على هذا الأثر بكل تأثيره يجب أن تقرأ فى وقت واحـــد « الكوميديا الإلهية » لدانتى ، وما كتبه هابل عن مملكة السُدُم Nei ulae مع خيال نشط فى كل حالة ومع فهم تام للكون الذى تصوره . أما عند دانتى فإن الأرض مركز العالم ؛ وهناك كريات عشر متحدة المركز تدور كلها حول

الأرض . ويعاقب الأشرار بعد الموت فى مركز الأرض ، أما الفضلاء نسبيا فيطهرون على جبل الأعراف Mount of Purgatory قبالة بيت المقدس . ويتمتع الصالحون بعد تطهرهم بالرضوان الدائم فى أحد الكواكب ، طبقا للدرجة استحقاقهم . والكون منظم صغير ؛ وإن دانتى ليزور كل الكواكب فى خلال أربع وعشرين ساعة ؛ وقد خلق كل شىء ليلائم الإنسان ، أى ليعاقب على الخطأ ويثيب على الفضيلة . وليس ثمة غوامض ولا نسيان ولا أسرار ، بل كل شىء يبدو كبيت صغير جدا يلعب به طفيل ، والناس فيه عرائس ، ولكن بالرغم من كون الناس عرائس فهم هامون لأنهم يثيرون انتباه مالك البيت الذى يلعب به .

والعالم الحديث مكان مختلف جدا . فمنذ انتصار النظام الكوبرنيقى عرفنا أن الأرض ليست مركز الكون ، وقد حلت الشمس محلها بعض الوقت ، ولكن ظهر أن الشمس ليست بأى حال ملكة بين النجوم ، بل إنها فى الحقيقة ليست حتى وسطاينها . وثمة كمية لا يسهل تصديقها من المسافة الخالية فى الكون . فالمسافة بين الشمس إلى أقرب النجوم منها حوالى ٢ ر ٤ سنوات ضوئية أو ٢٥ × ١٠١٢ من الأميال . هذا بالرغم من حقيقة كوننا نعيش فى جزء من الكون مزدحم إلى درجة غير عادية ، ونقصد به مجموعة نجوم المجرة ، أو درب التبانة Milky Way وهى مجموعة مكونة من حوالى ثلثمائة ألف مليون نجم . وهذه المجموعة واحدة من عدد عظيم من المجموعات المشابهة ، التى يعرف منها ثلاثون مليونا ، ولكن ربما أبدت التلسكوبات بعد تحسينها عددا أكبر . ومتوسط المسافة بين كل مجموعة وما تليها حوالى ٢ مليون سنة ضوئية . ولكن يبدو أن هذه المجموعات لا تحس أن لديها متسعا لأنها ، جميعا يبتعد بعضها عن بعض ، ويتجه بعضها ليبعد عنها بنسبة ١٤٠٠٠ ميلا أو أكثر فى الثانية . وأبعد ما لوحظ منها يعتقد أنه بعيد عنا بمقدار ٥٠٠ مليون سنة ضوئية حتى ؛ إن ما نراه منها الآن هو ما كان منها فى هذا الوضع منذ ٥٠٠

مليون سنة مضت . أما من جهة الحجم ، فإن الشمس تزن حوالى ٢ × ١٠[٢٧] طنا، وتزن المجرة أو « درب التبانة » قدر الشمس ١٦٠٠٠٠ مليون مرة ؛ وهى واحدة من المجرات galaxies التى يعرف منها حوالى ٣٠ مليونا .وليس من السهل أن يدوم اعتقاد المرء فى أهميته الكونية الخاصة فى ضوء هذه الاحصاءات المذهلة .

ويكفى هذا فيما يختص بالناحية التأملية فى مكان الإنسان فى كون علمى . وأنا آتى الآن إلى الناحية العملية .

والتقدم بالنسبة للرجل العملى مسأله لاتهمه ، فهو يمكن أن يفهم أن اهتمام علماء الفلك بها آت من أنهم يحصلون على رواتب من أجل هذا الاهتمام ، ولكن ليس ثمة من سبب يدعو إلى انشغاله بأى شىء تافه كهذا . والذى يهمه من العالم هو ما يستطيع أن يفيده منه ،ويستطيع رجل العلم أن يفيد من العالم أكثر بكثير من الذى لاصلة له بالعلم .

وفى عالم ماقبل النشاط العلمى كانت القوة لله وحده . فلم يكن ثمة كثير مما يستطيع الإنسان أن يفعله حتى فى خير الظروف المواتية ، وقد كانت الظروف عرضة لأن تصبح غير مواتية إذا أغضب النـــاس ربهم . وقد بدا ذلك فى صورة الزلازل والطواعين والقحط والهزائم فى الحروب . ولما كانت هـذه الحوادث كثيرة الحدوث كان واضحا أن من السهل أن يثار غضب الله . وبالقياس على ملوك الأرض قرر الناس أن أكثر ما يسخط الله هو قلة التواضع . فإذا أردت أن تمرق من حياتك دون أن تصاب بمصيبة ، فيجب أن تكون خاضعا،وأن تكون على وعى بضعفك،وعلى استعداد دائم للاعتراف به . ولكن الإله الذى اتضعت بنفسك أمامه كان فى الفهم شبيها بالانسان ، حتى إن الكون بدا إنسانيادافئا مريحا ، كالبيت الذى تعيش فيه إذا كنت أصغر أعضاء عائلة ضخمة؛

فهو يؤلم أحيانا ، ولكنه لا يستغرب ولا يستعصى على الادراك أبدا .

أما فى العالم العلمى فكل أولئك مختلف . فلست بالدعاء والتواضع تصرّف الأشياء على ما تحب، بل باكتساب معرفة بقوانين الطبيعة : والقوة التى تكتسبها بهذه الطريقة أكبر بكثير وأصلح للاعتماد عليها من القوة التى كنت تحصل عليها فى الماضى بالدعاء؛ لأنك لا تستطيع أن تجزم بأن دعاءك قد أجيب من السماء أولم يجب . وإن قوة الدعاء على أى حال قد اعترفت بالحدود ؛فمن عدم التدين أن تسأل الكثير، ولكن قوة العلم ليس لها حدود معروفة . وقد قيل لنا أن الاعتقاد يستطيع أن يحرك الجبال، ولكن لم يصدق هذا أى إنسان ؛ ويقال لنا الآن إن القنبلة الذرية يمكن أن تحرك الجبال ،وكل إنسان يصدق هذا[1] .

حقيقة إننا إذا توقفنا أبدا عن التفكير فى الكون فقد نجده غير مريح . فربما بردت الشمس أو تفجرت وربما فقدت الأرض غلافها الهوائى وخلت من السكان . فالحياة ظاهرة قصيرة صغيرة انتقالية فى زاوية غامضة وهى ليست أبدا من الأشياء التى يشغل الإنسان نفسه بها لو لم يكن على صلة شخصية بها . ولكن رجل العلم يقول إن من الرهبانية والمهلكة أن نستقر على أفكار كهذه باردة غير عملية . دعنا نبدأ تخصيب الصحراء ونذيب الثلج القطبى ، ويقتل بعضنا البعض بمنهج فى القتل دائم التحسن ، وسيكون بعض نشاطنا نافعا وبعضه ضارا ولكن

---

(١) إن الإنسان مع الجهد العلمى الدائب فى عصور التاريخ المتعاقبة لم يستطع حتى الآن إلا معرفة القليل من ظواهر المادة والأقل من القليل من عالم الروح . ويبقى العالم بل الكون كله بعد ذلك فى غيابات الغموض بالنسبة إلى هذا المخلوق العاجز الذى يشهد على عجزه مايقوله المؤلف فى نفس هذا الكتاب من سعة الكون وضآلة الإنسان . فالكلام بعد ذلك فى شئون الألوهية والغيبيات يجب أن يكون فى نطاق العقيدة لا فى حدود المعرفة كما بدا فى هذا الكتاب . (المترجم)

نشاطنا كله سيظهر قوتنا وهكذا سنصبح آلهة فى هذا الكون الخالى من الآلهة[١] .

ولقد كان للداروينية آثار كثيرة على نظرة الإنسان إلى الحياة والعالم ، بالإضافة إلى استبعاد الغرض الذى تكلمت عنه من قبل . وإن عدم وجود أى خط فاصل بين الناس والقردة لمتعب جدا لدراسة اللاهوت . متى أصبح الناس ذوى أرواح ؟ وهل كانت الحلقة المفقودة عرضة للمعصية ، ومن ثم مستحقة للنار ؟ وهل كان الرجل القرد Pithecanthropus Brectus مسئولا مسئولية خلقية ؟ وهل كان الإنسان البكنينى Homo Pekinienis ملعونا ؟ وهل صعد الرجل الذى عُثِرَ على جمجمته فى بلتداون Piltdown إلى السماء ؟ لابدّ أن يكون الجواب اعتباطيا .

ولكن الداروينية وعلى الأخص حين تفسر تفسيرا بدائيا لم تهدد أصحاب اللاهوت المتورعين فحسب ، بل هددت كذلك عقيدة الأحرار liberalism فى القرن الثامن عشر : وقد ساق مالثوس نظريته ليدحض أقوال كوندورسيه ؛ وإن نظرية داروين تسببت عن نظرية مالثوس . وكان لأحرار القرن الثامن عشر رأى فى الإنسان باعتباره مطلقا يشبه فى اتجاهه رأى طلاب اللاهوت : فكانت ثمة « حقوق للانسان » وكل الناس سواء ؛ فإذا بدا من أحدهم مقدرة أكثر مما عند الآخر فذلك راجع كله إلى نوع الثقافة الأفضل ، كما أخبر جيمز ميل ابنه ليمنعه من أن يصبح مغرورا .

ونحن نسأل مرة أخرى : هل يكون للرجل القرد لو كان حيا « حقوق الإنسان » ؟ وهل كان الإنسان البكنينى Pekinienis يساوى نيوتن لو ذهب إلى

(١) « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس» . (قرآن كريم)

كيمبردج ؟ وهل كان إنسان بلتداون ذكيا كأهل تلك القرية فى ساسكس ؟ إنك إذا أجبت عن كل هذه الأسئلة إجابة بالمبنى الديموقراطى فربما تراجعت إلى القردة الإنسانية anthropoid apes ، فإذا استمررت على هذا أمكن أن ترجع فى النهاية إلى الأميبا ، وهو أمر غير معقول (كما يقول إقليديس) . يجب إذا أن تعترف أن الناس ليسوا متساوين بالميلاد ، وأن التطور يصير باختيار الأنواع الملائمة . ويجب أن تعترف أن الوراثة لها نصيب فى تكوين البالغ الصالح ، وأن الثقافة ليست العامل الوحيد الذى يمكن اعتباره فى هذا الشأن . فإذا كان الناس متساوين عرفيا من الناحية السياسية فيجب ألا يكون ذلك لأنهم متساوون من الناحية الحيوية ، بل من أجل أسباب أخرى سياسية محضة . ومثل هذه التأملات كان يهدد الليبيرالية السياسية ولو أن ذلك لم يكن عدلا على ما أرى .

والاعتراف بأن الناس ليسوا مساوين فى المواهب الطبيعية يصبح خطرا حين توصف بعض الجماعات بأنها ممتازة أو منحطة ؛ فإذا قلت إن الأغنياء أقدر من الفقراء ، أو إن الرجال أقدر من النساء ؛ أو إن البيض أقدر من السود ، أو إن الألمان أقدر من أية أمة أخرى ، فإنك تقول بمبدأ لا يجد ما يعضده فى الداروينية ؛ وهو يؤدى بالتأكيد إما إلى الرق وإما إلى الحرب .

ولكن مثل هذه المبادىء مهما كانت غير جائزة فقد أعلن عنها باسم الداروينية ، كما كانت الحال مع النظرية القاسية القائلة إن الضعيف يجب أن يهلك ؛ لأن تلك هى طريقة الطبيعة فى التقدم . وإذا ارتقى الجنس بتنازع البقاء كما يقول المدافعون عن هذه النظرية فدعنا نرحب بالحروب ، ومن الخير أن تكون أكثر تخريبا . وهكذا نعود إلى هيرا قليط أول الفاشيين الذى يقول : « لقد كان هو مروس مخطئا فى قوله : (ليت القدرة على الخصام تختفى بين الآلهة وبين الناس) . إنه لم يفطن إلى أنه كان يدعو إلى خراب الكون ... فالحرب عامة للجميع ، والكفاح عدالة ...

والحرب أب للجميع ،وملك على الجميع ، جعل البعض آلهة والبعض رجالا ، كما جعل البعض عانيا والبعض حراً » .

ولقديكون غريبا لو كان آخر أثر من آثار العلم أحياء فلسفة ترجع إلى خمسمائة عام قبل الميلاد . وكان ذلك صحيحا إلى حد ما بالنسبة إلى « نيتشه » وإلى النازيين ، ولكنه ليس صحيحا بالنسبة إلى أية مجموعة قوية فى الوقت الحاضر فى العالم . والذى لاشك فيه أن العلم قد زاد من الإحساس بالقوة الإنسانية ، ولكن هذا الأثر أشد اتصالا بالعلم كمنهج منه بالعلم كفلسفة .

ولقد حاولت فى هذا الفصل أن أحصر نفسى فى العلم كفلسفة ، تاركا العلم كمنهج لفصول لاحقة . وبعد أن نتأمل العلم كمنهج نعود إلى فلسفة القدرة الإنسانية التى يشير إليها : ولست بقادر على قبول هذه الفلسفة التى أعتقد أنها خطرة جدا . ولكننى سوف لا أتكلم عن هذا الآن .

الفصل الثانى

الآثار العامة للمنهج العلمى

للعلم منذ أيام العرب وظيفتان : فهو أولاً يجعل فى طوقنا أن نعلم الأشياء ، وثانيا يجعل فى مقدورنا أن نفعل الأشياء . وكان الإغريق باستثناء أرشميديس لا يهتمون إلا بالوظيفة الأولى فحسب . فكان لهم حب استطلاع شديد بالنسبة لهذا العالم ، ولكن المتحضرين من الناس ، وقد عاشوا عيشة مريحة على كدح العبيد ، لم يكن لهم اهتمام بالمنهج العلمى . وجاء الاهتمام الأول بالاستخدامات العملية للعلم بطريق الخزعبلات والسحر . ولقد أراد العرب أن يكشفوا عن حجر الفيلسوف ، وإكسير الحياة ، وكيف يحولون المعادن الأساسية إلى ذهب ؛ وفى سعيهم إلى هذه الأهداف كشفوا عن كثير من الحقائق فى الكيمياء ، ولكنهم لم يصلوا إلى قوانين سارية هامة عامة ، وظل منهجهم بدائيا .

وقد تم كشفان فى أواخر القرون الوسطى كان لهما أهمية عظيمة على أى حال ، وكان هذان هما البارود ، والبوصلة البحرية . ولسنا نعلم من قام بهذين الكشفين ، ولكن الشىء الوحيد المؤكد هو أنه لم يكن روجر بيكن[1] .

وكانت الأهمية الرئيسية للبارود فى البداية أنه جعل فى استطاعة الحكومات المركزية أن تخضع البارونات الثائرين . وما كان للماجنا كارتا أن تنتصر لو أن

---

(١) المعروف بوجه عام أن البوصلة مما كشف عنه العرب (راجع دائرة المعارف البريطانية مادة Compass) المترجم .

الملك جون كانت له مدفعية ، ولكننا بالرغم من أننا قد ننحاز فى هذا المثال بالذات إلى ناحية البارونات ضد الملك ، فقد كانت القرون الوسطى بصفة عامة تشكو من الفوضى ، وكان المطلوب هو وسيلة لإقرار النظام واحترام القانون ، ولم يكن يستطيع أن يفعل هذا فى ذلك الوقت إلا القوة الملكية . فقد اعتمد البارونات على حصونهم التى لم تكن تستطيع احتمال المدافع ، وذلك هو السبب فى أن ملوك أسرة تيودور كانوا أكثر قوة ممن سبقهم من الملوك . وقد حدث نفس هذا النوع من التغير فى فرنسا وأسبانيا فى نفس الوقت . وإن قوة الدولة الحديثة قد بدأت فى القرن الخامس عشر ، وبدأت نتيجة الكشف عن البارود . ومنذ ذلك الوقت إلى الآن ازدادت سلطة الدولة ، ولم يصر هذا الازدياد ممكنا فى كل الحالات إلا بتحسين أسلحة الحرب بصفة رئيسية . والذى بدأ هذا التطور هو هنرى السابع ، ولويس الحادى عشر ، وفرديناند وإزابيلا ، وقد نجحوا بوساطة المدفعية .

وكان للبوصلة البحرية نفس الخطورة ؛ إذ جعلت عصر الكشوف أمرا ممكنا ، وانفتح العالم الجديد للمستعمرين البيض ، وأصبح من الممكن بوساطة الطريق إلى الشرق عبر رأس الرجاء الصالح أن يتم غزو الهند ، وأن تتم اتصالات هامة بين أوربا والصين ، وازدادت أهمية القوة البحرية ، واستطاعت أوربا الغربية أن تسيطر باستخدام هذه القوة على العالم ، ولم تنته هذه السيطرة إلا فى القرن الحاضر فحسب .

ولم يحدث ما يساوى ذلك خطورة فى استحداث المنهج العلمى ، إلى ظهور البخار والثورة الصناعية . وقد تسببت القنبلة الذرية فى جعل كثير من الناس فى السنوات السبع الأخيرة يظنون أن المنهج العلمى ربما بولغ فى استخدامه ، ولكن لا جديد فى هـذا ؛ فإن الثورة الصناعية قد تسببت فى بؤس لا يوصف فى انجلترا وفى أمريكا كلتيهما ، ولا أظن طالبا من طلاب التاريخ الاقتصادى يمكن أن يشك فى أن متوسط السعادة فى انجلترا فى أوائل القرن التاسع عشر كان

أحط . مما كان منذ مائة عام مضت ، وأن مرجع ذلك يكاد أن يكون جميعه إلى المنهج العلمي .

دعنا نتأمل القطن الذي كان أهم مثال في مبدأ الصناعة ، فقد كان الأطفال يعملون ما بين اثنتي عشرة إلى ست عشرة ساعة في اليوم لدى آلات صناعة القطن في لانكشير (وهي الآلات التي اكتسب منها ماركس وانجلز عيشهما) وكان بدء التحاقهم بالعمل هو سن السادسة أو السابعة . وكان من المحتم أن يُضرَب الأطفال حتى لا يغلبهم النوم في وقت العمل ، وقد أخفق الكثيرون منهم بالرغم من ذلك في أن يظلّوا يقظين ، وابتلعتهم الآلات فقطعت أوصالهم أو قتلتهم . واضطر الآباء إلى الخضوع لهذه الوحشية التي يعامل بها أطفالهم ، لإنهم هم أنفسهم كانوا في حالة من الحاجة تدعوا إلى اليأس . فالصناع اليدويون قذفت بهم الآلات خارج أعمالهم ، كما اضطر العمال الريفيون إلى الهجرة إلى المدن نتيجة لقوانين التسوير (Enclosure Acts) التي استخدمت هيئة البرلمان لتصير ملاك الأرض إلى غنى أكبر، ولتجعل الفلاحين معدمين ، وكانت اتحادات المهن محرمة قانونا حتى عام ١٨٢٤ ؛ فقد استخدمت الحكومة محرضين أجراء agents provocateurs لتحاول إبعاد الإحساسات الثورية عن أصحاب الأجور الذين كانوا في ذلك الوقت ينفون ويشنقون .

كان هذا أول أثر للآلات في انجلترا . وكانت الآثار في الولايات المتحدة في نفس الوقت مماثلة في الفظاعة .

وفي أيام حرب الاستقلال ، وبعد انتهائها بسنين كانت الولايات الجنوبية راغبة في التفكير في إلغاء الرق في المستقبل القريب . وقد بطل الرق في الشمال والغرب بإجماع الأصوات في عام ١٧٨٧ ، وأمل جفرسون (ولم يعدم سببا لهذا الأمل) في أن

براه باطلا فى الجنوب . ولكن وتنى اخترع آلة حلج القطن عام ١٧٩٣ ، فجعلت الزنجى يستطيع أن ينظف خمسين رطلا من التيلة كل يوم ، بدل رطل واحد فحسب فى الماضى . وقد تسببت وسائل « الاقتصاد فى الجهد » فى انجلترا فى أن يضطر الأطفال إلى العمل خمس عشرة ساعة فى اليوم ، وفرضت وسائل « الاقتصاد فى الجهد » فى أمريكا على العبيد حياة من الجهد أكثر قسوة مما احتملوا قبل اختراع مستر وتنى . ولما كانت تجارة الرقيق قد ألغيت عام ١٨٠٨ لم يمكن الازدياد الضخم فى زراعة القطن بعد هذا التاريخ إلا باستيراد الزنوج من الولايات الأقل توغلا فى الجنوب، والتى لم تكن زراعة القطن سائدة فيها . وقد كان الجنوب الأقصى غير صحى ، وكان العبيد فى مزارع القطن مرهقين ، وأصبحت الولايات التى تبيح الرق وليست متوغلة فى الجنوب حقل تفريخ للعبيد من أجل الجبانات الجنوبية المربحة . ومن النواحى التى تثير الاشمئزاز إثارة خاصة فى تجارة الرقيق أن الرجل الأبيض الذى كان يملك إناث العبيد كان يستطيع أن يستولدهن ، فيكون أطفالهن عبيدا له يستطيع أن يبيعهم للمزارع إذا كان فى حاجة إلى النقود ، ليصبحوا على أكبر احتمال ضحايا الانكلستوما **Hook Worm** وللملاريا والحمى الصفراء .

وكانت النتيجة النهائية هى الحرب الأهلية التى ما كانت لتحدث أبدا لو أن صناعة القطن ظلت غير متأثرة بالعلم .

وثمة نتائج كذلك فى القارات الأخرى : فقد استطاعت السلع القطنية أن تجد لها سوقا فى الهند وفى أفريقيا ، واتفق ذلك فى التوقيت مع الاستعمار البريطانى . وكان لا بد أن يتعلم الأفريقيون أن العرى عيب ، وكانت أرخص الطرق فى هذا التعليم أن يقوم به المبشرون . وقد صدرنا السل والزهرى بالإضافة إلى السلع القطنية ، ولكننا لم نحصل على شىء ثمنا لها .

لقد عنيت بمسألة القطن لأننى أريد أن أؤكد أن رجوع الشرور إلى المنهج العلمى الحديث ليس أمرا جديدا . وإن الشرور التى كنت أتكلم عنها توقفت فى الوقت المناسب : فقد بطل تشغيل الأطفال فى انجلترا ، وبطل الرق فى أمريكا ، والاستعمار فى الهند لم يعد موجودا . وإن الشرور التى لاتزال فى أفريقيا لاعلاقة لها بالقطن الآن .

وكان للبخار الذى عد من أهم العناصر فى الثورة الصناعية أهم المجالات العملية المتميزة فى النقل ؛ أى البواخر والسكك الحديدية ، ولم تظهر الآثار بوضوح على نطاق حقيق واسع حتى انقضى نصف القرن التاسع عشر ، حين أدت إلى فتح الغرب الأوسط الأمريكى ، وإلى استعمال قمحه لتموين سكان المناطق الصناعية فى انجلترا ونيوانجلند . وقد أدى ذلك إلى زيادة عامة فى الرخاء ، وكان له أثر فى خلق روح التفاؤل التى سادت عصر فكتوريا أكثر من أى سبب آخر منفرد . فقد جعل من الممكن أن يزداد عدد السكان فى كل بلد متمدن ، إلا فى فرنسا ، حيث منعت قوانين نابليون code Napoléon هذا الازدياد بتشريع المساواة فى القسمة فى مال الرجل بين أطفاله جميعا ، وحيث كانت الأغلبية من ملاك الأرض الصغار الذين لم يكن لهم إلا القليل جدا منها :

ولم يستتبع هذا التطور شرور التصنيع السابقة ، وكان ذلك بصفة رئيسية على ما أظن بسبب إلغاء الرق ، ونمو الديموقراطية . وإن الفلاحين الإيرلنديين ، ورقيق الأرض من الروس الذين لم يكونوا يحكمون أنفسهم بأنفسهم ظلوا يقاسون ما كانوا فيه . وكان من الممكن أن يستمر عمال القطن فيما يقاسونه لو أن ملاك الأرض

من الانجــليز كانوا من القوة بحيث يتغلبون على كوبدين Cobden وبرايت Bright[1] .

والمرحلة الهامة التالية فى تطور المنهج العلمى متصلة بالــكهرباء ،والنفط ، وآلة الاحتراق الداخلى .

فمن قبل استخدام الــكهرباء كمصدر للقوة بوقت طويل حدث استخدامها فى التلغراف ، فــكان لهذا عاقبتان هامتان : الأولى أنه أصبح من الممكن للرسائل أن تسافر أسرع من الآدميين ، والثانية أن السيطرة الشاملة على المنظمات الــكبيرة من مركز ما قد أصبحت أكثر إمكانا مما كانت من قبل .

وكون الرسائل يمــكن أن تسافر أسرع ممـا يسافر الإنسان أصبح نافعا للشرطة فوق كل شىء . فقد كان فى طوق قاطع الطريق قبل ظهور التلغراف أن يهرب على ظهر حصانه السريع إلى مكان لم يسمع فيه بجريمته إلى وقت وصوله ، فــكان من ذلك أن أصبح القبض عليه أكثر صعوبة . وكثيرا ما يكون هؤلاء الذين تريد الشرطة أن تقبض عليهم محسنين إلى الإنسانية لسوء الحظ . ولو أن التلغراف كان موجودا فى القديم لاستطاع بوليقراطيس أن يقبض على فيثاغورس ، ولاستطاعت حكومة أثينا أن تلقى القبض على أنا كسا غوراس ، ولاستطاع البابا أن يقبض على وليام الأوكامى ، ولاستطاع «بيت» أن يمسك «توم بين» حين هرب إلى فرنسا عام ١٧٩٢ : وإن قسما كبيرا من خيرة الألمان والروس قد قاسى تحت حكم هتلر وستالين ، وكثير غيرهم كان يمكن أن يهرب لولم يكن نقل الرسائل سريعا . ومن ثم لم تــكن زيادة قوة الشرطة خيراً كلها على أى حال .

---

(١) ريتشارد كوبدن وجون برايت كانا ممن عارضوا قوانين القمح corn Laws ودعوا إلى حرية التجارة وتعميم الثقافة بين الناس فى القرن التاسع عشر فى انجلترا . (المترجم)

إن إزدياد السيطرة المركزية كنتيجة من نتائج التلغراف أكثر أهمية مما سبق . فقد كان فى استطاعة الولاة والحكام المحليين فى الإمبراطوريات القديمة أن يثوروا ، وكان لهم من الوقت مايستطيعون فيه أن يتخندقوا قبل أن تعلم الحكومة المركزية بسخطهم . فحين أعلن قسطنطين نفسه إمبراطورا فى يورك ، وزحف إلى إلى روما ، كان يعسكر تحت أسوار المدينة قبل أن تعلم السلطات الرومانية بمجيئه . فلو أن التلغراف كان موجودا فى تلك الأيام فربما لم يكن العالم الغربى مسيحيا اليوم . وإن معركة نيو أورليانز فى حرب عام ١٨١٢ قد نشبت بعد أن استقر السلام ، ولم يكن أى من الجيشين على علم بهذه الحقيقة . وكان للسفراء قبل ظهور التلغراف استقلال ليس لهم منه شيء الآن ، لأنه كان من الضرورى أن يعطوا حرية فى التصرف ، إذا كان العمل السريع ضروريا فى أزمة ما .

ولم يتسبب التلغراف فى التغير بالنسبة إلى الحكومة فحسب ، بل كان حيثما وجدت منظمات تغطى مساحات ضخمة . اقرأ فى رحلات هاكلويت مثلا عن المحاولات التى قامت بها المصالح التجارية الإنجليزية فى أيام إليزابيث لخلق تجارة مع روسيا ، وكان كل ما أمكن عمله هو اختيار مبعوث نشط لبق وإعطاؤه كتبا وسلعا ونقودا وتركه يشق طريقه بالقدر الذى يستطيع . ولم يكن الاتصال بينه وبين من أرسلوه ممكنا إلا بمدفترات طويلة ، ولم تكن تعليماتهم له فى وقتها أبداً .

وكان أثر التلغراف هو الزيادة فى قوة الحكومة المركزية ، وانتقاص حرية التصرف عند الأتباع القاصين . ولم ينطبق هذا على الدولة فحسب ، بل على كل منظمة منتشرة جغرافيا ، وسنجد أن قدرا كبيرا من النهج العلمى له أثر مشابه ، ومن نتيجة ذلك أن قلة من الناس تصبح لهم قوة تنفيذية ، ولكن هؤلاء القلة لهم قوة أكبر مما كان لأضرابهم من قبل .

وقد أتمت الأذاعة فى كل هذه النواحى ما بدأه التلغراف .

إن الكهرباء باعتبارها منبعا من منابع القوة أحدث كثيرا من التلغراف ، ولم تستنفد بعد كل آثارها التى يمكن أن تصدر عنها . أما باعتبارها مؤثرا فى النظام الاجتماعى فإن أظهر آثارها هو أهمية محطات توليد القوى التى يتحتم أن تستدعى المركزية . وإن فلاسفة لابوتا كانوا يستطيعون أن يصيروا التبعية الثائرة إلى خضوع بإدخال جزيرتهم العائمة بين الثوار وبين الشمس . ويمكن أن يتم شىء شبيه بهذا على يد هؤلاء الذين يسيطرون على محطات القوى طالما اعتمد المجتمع عليهم فى الإضاءة والتدفئة والطبخ . ولقد عشت فى بيت ريفى فى حقل من حقول أمريكا ، وكان هذا البيت يعتمد اعتمادا كليا على الكهرباء ، وكان من الممكن فى الإعصار أن تسقط الأسلاك ؛ وكانت النتيجة المتعبة لهذا لا تكاد أن تحتمل : فلو أننا مُنِعنا الكهرباء عمدا لكوننا ثائرين لاضطررنا بعد قليل إلى التسليم .

وإن أهمية النفط والآلة ذات الاحتراق الداخلى فى منهجنا الحاضر واضحة لكل إنسان . ومن المفيد لأسباب فنية أن شركات النفط كبيرة جدا ؛ لأنها لو لم تكن كذلك لما كان لها أن تقدر على أشياء مثل خطوط الأنابيب الطويلة . وأهمية شركات النفط فى السياسة فى السنوات الثلاثين الأخيرة أهمية معترف بها من الجميع . وهذا صادق على وجه الخصوص فى حالتى الشرق الأوسط وإندونيسيا . وإن النفط لمنبع خطير من منابع الاحتكاك بين الغرب والاتحاد السوفيتى ، ويبدو أنه يخلق شعور صداقة للشيوعية فى بعض الأقاليم الهامة من الناحية الاستراتيجية بالنسبة للغرب .

ولكن أهم شىء فى هذا الصدد هو تطور الطيران ، فقد زادت الطائرات إلى غير حد من قوة الحكومات . ولن تستطيع ثورة أن تنجح مالم تملك جزءا من

سلاح طيران على الأقل . ولم تزد الحرب الجــــوية من قوة الحكومات فحسب ، ولكنها زادت كثيرا من عدم التناسب بين الدول الكبرى والدول الصغرى . فليس إلا فى طوق الدول الكبرى أن يكون لها سلاح طيران ضخم ، ولا تستطيع دولة صغرى أن تجابه دولة كبرى ذات تفوق جوى .

ويؤدى بى هــذا إلى أحدث التطبيقات الفنية للمعرفة الطبيعية ، وأقصد استخدام الطاقة الذرية . فليس من الممكن حتى الآن أن نقدر استخدامها فى سبيل السلام ، وربما تصبح فى المستقبل منبعا للقوة لأغراض معينة ، فتخطو خطوة أخرى فى طريق التركيز الذى تمثله الآن محطات القوى . وربما استعملت على النحو الذى قالت الحكومة السوفييتية إنها تنوى أن تنحوه فى استخدامها — أى تغيير الجغرافيا الطبيعية بمحو الجبال ، وتحويل الصحراوات إلى بحيرات . ولكن الطاقة الذرية على قدر ما نستطيع أن نحكم الآن لا يحتمل أن تكون هامة فى السلم كما هى فى الحرب .

ولقد ظلت الحرب خلال التاريخ منبعا رئيسيا للتكامل الاجتماعى ومنذ أن بدأ العلم أصبحت أقوى دافع على التقدم الفنى . وللجماعات الكبيرة فرصة فى النصر خير مما للجماعات الصغرى ، ولهذا كانت النتيجة المعتادة للحرب هى تكوين دول أضخم . وثمة حد للحجم فى كل دولة ذات منهج . ولقد توقفت الإمبراطورية الرومانية عند الغابات الألمانية والصحراوات الأفريقية ؛ وتوقف الفتح البريطانى فى الهند عند جبال هملايا ، وانهزم نابليون أمام الشتاء الروسى . وقد مالت الإمبراطوريات الكبرى قبل ظهور التلغراف إلى الانقسام إلى أقاليم ، لأنها لم تستطع السيطرة على بلدانها سيطرة تامة من المركز .

وقد كانت الاتصالات إلى ذلك الوقت عامــــلا أساسيا فى تحديد حجم

الإمبراطوريات . وقد اعتمد الفرس والرومان فى القديم على الطرق ، ولما لم يسر شىء أسرع مما يسير الحصان أصبحت الإمبراطوريات صعبة الإدارة حين عظمت المسافة بين العاصمة وبين الحدود . وقد قلل من هذه الصعوبة ظهور السكة الحديدية والتلغراف ، وهذه الصعوبة تكاد تختفى مع تحسن قاذفة القنابل البعيدة المدى . وما كان لنا الآن أن نجد أية صعوبة فى إيجاد إمبراطورية تضم العالم جميعه . وما دام يحتمل أن تصبح الحروب أكثر تحطيما للحياة الإنسانية مما كانت فى القرون القريبة فإن توحيد العالم تحت حكومة واحدة يصبح ضروريا ، إلا إذا كنا سنرضى إما بالعودة إلى البربرية أو بمحو الجنس الإنسانى .

ويجب أن نعترف بأن ثمة صعوبة سيكولوجية بالنسبة لحكومة عالمية واحدة . فقد كان المنبع الوحيد للتكامل الاجتماعى فى الماضى — وأنا أكرر هذا — هو الحرب . والإحساسات التى تسبب الشعور بالوحدة هى الكراهية والخوف . ويتوقف هذان على وجود عدو إما بالفعل أو بالقوة . ويبدو أن مما يستتبعه هذا أن الحكومة العالمية لا يمكن أن تظل باقية إلا بالقوة فحسب ، لا عن طريق الولاء النابع من النفس الذى يصدر عنه الآن سلوك أمة ما فى وقت الحرب . وسوف أعود لهذه المشكلة فى مرحلة متأخرة .

ولقد نظرت حتى الآن فى المناهج المشتقة من الطبيعة والكيمياء . وقد ظلت هذه حتى وقتنا الحاضر أعظم المناهج أهمية ، ولكن علم الحياة ، وعلم وظائف الأعضاء ، وعلم النفس يحتمل بمرور الوقت أن تؤثر فى الحياة الإنسانية بقدر ما أثرت الطبيعة والكيمياء .

خذ أولا مسألة الطعام وعدد السكان : فسكان الأرض يتزايدون فى الوقت الحاضر بنسبة حوالى عشرين مليونا فى العام ، ومعظم هذه الزيادة فى روسيا

وجنوب شرق آسيا . أما عدد سكان أوربا الغربية والولايات المتحدة فيظل ثابتا على وجه التقريب ؛ والإمداد بالطعام فى العالم فى مجموعه مهدّد بالهبوط فى نفس الوقت كنتيجة للطرق غير الحكيمة لزراعة الغابات واقتلاعها . وهذا موقف خطر إذا تُرك وشأنه ، فلابد أن يؤدى إلى نقص فى الطعام ، ومن ثم إلى حرب عالمية . وإن المنهج العلمى ليجعل بعض المسائل ممكنة .

إن الإحصاءات الحيوية فى الغرب يسيطر عليها الطب وتحديد النسل : وأحدهما ينقص نسبة الموت ، والثانى ينقص نسبة الولادة . ومن نتائج ذلك أن متوسط العمر يزداد فى الغرب ، فثمة نسبة من صغار السن أقل ، ونسبة أكبر من المسنين ، ويظن بعض الناس إن ذلك لابد أن يؤدى إلى نتائج سيئة ، ولكننى لست واثقا من صدق قولهم .

ويمكن تجنب خطر النقص العالمى فى الطعام بعض الوقت بتحسين منهج الزراعة . ولكن عدد السكان إذا استمر فى التزايد بالنسبة الحاضرة فلا يمكن لمثل هذا التحسين أن يكفى لمدة طويلة . وسوف تكون إذا مجموعتان : إحداهما فقيرة يزداد عددها والأخرى غنية ثابتة العدد . ولا يكاد موقف كهذا يخفق فى أن يؤدى إلى حرب عالمية . وإذا أردنا تجنب نسق لا ينتهى من الحروب فيجب أن يثبت عدد السكان فى العالم كله ، ويحتمل أن يضطر الناس إلى هذا المسلك فى بلاد كثيرة كنتيجة لإجراءات حكومية . وسيتطلب هذا توسعا فى المنهج العلمى فى الأمور الخاصة جـــدا . وثمة إمكانيتان على أى حال : فربما أصبحت الحرب من التخريب بدرجة ألا يصبح هناك خطر من زيادة السكان ولو إلى حين على أى حال ، أو ربما انهزمت الأمم العلمية فتحطم المنهج العلمى على يد الفوضى .

ويحتمل أن يؤثر علم الحياة فى الحياة الإنسانية بطرق دراسة الوراثة .وقد حول الناس الحيوانات المنزلية ونباتات الطعام بدون استخدام العلم إلى درجة كبيرة بطرق نافعة . وربما افترضنا أنهم سيغيرونها أ كثر من ذلك بكثير وبسرعة أ كبر بطرق استخدام علم الأجنة genetics ، وربما أصبح ممكنا أن تستنبط تغيرات صناعية مرغوب فيها للجينات genes (والتغيرات التى توجد صناعيا حتى الآن إما محايدة أو ضارة) . ومن المؤكد على أى حال أن المنهج العلمى سرعان ما يسبب تحسينات عظيمة فى الحيوانات والنباتات النافعة للإنسان .

وحين تستخدم الطرق التى يتم بها تعديل الخصائص الخلقية للحيوانات والنباتات مدة تكفى لإثبات نجاحها يحتمل أن توجد حركة قوية فى سبيل تطبيق الطرق العلمية على التكاثر الإنسانى . وسيكون ثمة فى البداية عقبات دينيه واجتماعية فى طريق اتباع هذه السياسة ، ولكن افرض أن روسيا مثلا كانت قادرة على أن تتغلب على هذه العقبات ، وأن تنشىء جنسا أقوى وأذكى وأكثر مقاومة للمرض من أى جنس إنسانى وجد إلى ذلك الوقت ، وافرض أن الأمم الأخرى أدركت أنها ستنهزم فى الحرب مالم تنح هذا النحو ، فحينئذ إما أن تتطوع الأمم الأخرى بالتنازل عن آرائها ، أو تضطر بعد الهزيمة أن تتنازل عنها . وكل منهج علمى مهما كان قاسيا سيئول فى النهاية إلى الانتشار ما دام نافعا فى الحرب ، حتى يأتى وقت يقرر الناس فيه أنهم سئموا الحرب ، وأنهم سيعيشون بعد ذلك فى سلام . وما دام هذا اليوم لايبدو قريبا فإن التناسل العلمى للكائنات الإنسانية لابدّ أن يتوقع حدوثه . وسأعود إلى هذا الموضوع فى فصل لاحق .

أما علم وظائف الأعضاء وعلم النفس فيمطياننا حقولا للمنهج العلمى لا تزال تنتظر التطور . وقد وضع الأسس لهذين العلمين رجلان عظيمان هما پافلوف وفرويد .

ولست أقبل القول بأنهما متعارضان تعارضا جوهريا، ولكن البناء الذى سيبنى على أسسهما لا يزال موضع شك .

وأظن أن الموضوع الذى سيكون أكبر أهمية من الناحية السياسية هو علم النفس الجماعى . وعلم النفس الجماعى من وجهة النظر العلمية دراسة غير متقدمة، ولم يدخل أساتذته الجامعات حتى اليوم، بل هم معلنون وسياسيون وفوق كل ذلك دكتاتوريون .وهذه الدراسة نافعة نفعا ضخما للرجال العمليين، سواء أكانوا يريدون أن يصبحوا أغنياء أو ليسيطروا على الحكومة . وهى باعتبارها علما مبنية بالطبع على علم النفس الفردى، ولكنها حتى الآن تستخدم طرقا عملية غير مبنية على نظرية، بل مبنية على نوع من التقدير الشخصى المبنى على الحدس . وقد ازداد خطرها إلى حد كبير بنمو الطرق الحديثة للدعاية؛ وأقوى هذه الطرق نفوذاً ما يسمى « التربية » ويلعب الدين دوراً ولو أنه يتناقص، أما الصحافة والسينما والاذاعة فتلعب دوراً متزايداً .

والجوهرى فى علم النفس الجماعى هو فن الاستمالة **persuasion** فإذا وازنت حديثا من هتلر بحديث من إدموند بيرك مثلا فسوف ترى الخطوات الواسعة التى خطاها هذا الفن منذ القرن الثامن عشر . وكان الخطأ فى الماضى أن الناس قرأوا فى الكتب أن الانسان حيوان منطقى **rational** ، ووضعوا مناقشاتهم فى إطار هذا الفرض . ونحن نعلم الآن أن الأضواء الباهرة وفرقة الموسيقى النحاسية تفعل فى سبيل الاستمالة أكثر مما يفعل نسق من القياسات المنطقية الأنيقة . وربما أملنا أن يستطيع أى انسان فى الوقت المناسب أن يستميل أى انسان ليفعل أى شىء إذا استطاع أن يقتنص من يريد استمالته فى الوقت المناسب **if he can catch the patient young** وإذا أمدته الدولة بالمال والعدة .

ولسوف تتقدم هذه المادة بخطى واسعة حين يشتغل بها العلماء تحت دكتاتورية علمية . ولقد رأى أنكسا غوراس أن الجليد أسود ولكن لم يصدقه إنسان ؛ وإن علماء النفس الاجتماعيين فى المستقبل ستكون لهم فصول من تلاميذ المدارس يجربون عليهم الطرق المختلفة لخلق الاعتقاد الثابت أن الجليد أسود . وسيوصل عما قريب إلى نتائج متعددة ؛ منها أولا أن نفوذ البيت معطل ،ثانيا أنه لا يمكن إتمام عمل كثير ما لم يبدأ التوجيه المذهبى indoctrination قبل السنة العاشرة ، ثالثا أن الأبيات الملحنة التى تغنى على الدوام مؤثرة جدا ، رابعا أن الرأى القائل إن الجليد أبيض يجب أن ينظر إليه باعتباره من أعراض الذوق المريض الميال إلى الشذوذ . ولكننى أسبق الحوادث ؛ فمن حق علماء المستقبل وحدهم أن يجعلوا هذه المبادىء مضبوطة ، وأن يكتشفوا بالضبط ماتتطلبه من نفقات عن كل فرد حتى يعتقد الأطفال أن الجليد أسود ؛ ولكم تقل النفقة المطلوبة إذا أريد لهم أن يعتقدوا أنه رمادى داكن .

ومع أن هذا العلم سيصادف بحثا مجدًّا سيظل محصورا فى الطبقة الحاكمة ، وسوف لايسمح للأهلين أن يعرفوا كيف تولدت معتقداتهم وحين يصل المنهج إلى درجة الإتقان ستستطيع كل حكومة تشرف على التربية لمدة جيل من الزمان أن تضمن السيطرة على رعاياها دون حاجة إلى جيوش أو شرطة . أما الآن فليس ثمة إلا قطر واحد نجح فى خلق جنة بالنسبة للسياسى .

إن الآثار الاجتماعية للمنهج العلمى أصبحت متعددة وهامة ، ويحتمل أن تصبح فى المستقبل أكثر استحقاقا للانتباه . ويتوقف بعض هذه الآثار على الخصائص السياسية والاقتصادية للبلد موضع الدراسة ، ولكن بعضها الآخر حتمى أيا كانت هذه الخصائص . وأقترح أن أعرض فى هذا الفصل للآثار الحتمية فحسب .

وأوضح آثار المنهج العلمى وأكثرها جذبا للانتباه أنه يجعل المجتمع أكثر

اتصافا بالعضوية ؛ بمعنى أنه يزيد من تساند أجزائه المختلفة . ولهذا شكلان فى مجال الصناعة : فثمة أولا التواصل الوثيق بين الأفراد المشتغلين بعمل مشترك كالمصنع مثلا ، وهناك ثانيا العلاقة الأقل توثقا — ولكنها جوهرية كذلك — بين عمل وعمل . ويصبح كل من هذين أكبر أهمية بتقدم المنهج العلمى .

وربما أنتج الفلاّح فى دولة غير مصنعة كل طعامه الخاص بوساطة آلات رخيصة جدا ، وهذه الآلات مضافة إلى بعض ملابسه وقليل من الأشياء كالملح هى كل مايحتاج إلى شرائه . وعلاقاته بالعالم الخارجى تهبط إلى أقل درجة . وما دام يقوم مع مساعدة زوجه وولده بإنتاج قليل من الطعام أكثر مما تتطلبه أسرته فهو يستطيع أن يتمتع باستقلال يكاد يكون تاما ، ولو أن ذلك يكلفه جهدا وفقرا . ولكنه فى وقت القحط يجوع وربما مات معظم أطفاله . وهو يدفع من أجل حريته أغلى الأثمان ، حتى إن القليلين من المتمدنين يودون أن يتبادلوا معه طريقة المعيشة . وقد كانت هذه حال معظم سكان البلاد المتحضرة حتى ظهرت الصناعة .

ومع أن حال الفلاح قاسية فى كلّ ناحية من نواحيها فهى عرضة لأن تصبح أشد قسوة بأحد عدوين أو كليهما : معطى القرض وصاحب الأرض . وستجد فى أى تاريخ من أى عصر هذه الصورة القاتمة الآتية على وجه التقريب : « وفى ذلك الوقت صادف الفلاحون ظروفاً قاسية . وقد اضطر كثير منهم تحت التهديد بالمجاعة لسوء المحاصيل أن يقترضوا من مانحى القروض فى المدن ، وهم الذين لم يكن لهم شىء من تقاليد الفلاحين ، ولا من تقوامهم القديمة ، ولا من شجاعتهم الصابرة ؛ وكان لا بد أن يصبح هؤلاء الذين خطوا هذه الخطوة القاضية عبيدا أو قطينا Serfs لأعضاء الطبقة التجارية الجديدة . وهكذا خضع الفلاحون الأقوياء الذين كانوا العمود الفقرى للأمة على يد المرفهين الذين كان لهم من القدرة ما مكنهم من أن يكدسوا ثروة جديدة

بطرق غير حميدة » وستجد هذه المقالة فى جوهرها فى تاريخ أثينا **Attica** قبل سولون، وإقليم لا تيوم الرومانى بعد الحرب البونيّة **Punic Wars** ، وتاريخ انجلترا فى مبدأ القرن التاسع عشر ، وتاريخ جنوب كاليفورنيا كما يصوره نوريس فى كتابه **Octopus** ، وتاريخ الهند تحت التاج البريطانى **British Raj** ، وتاريخ الأسباب التى دعت الفلاحين الصينيين إلى تعضيد الشيوعية . ومهما كانت هذه العملية تستوجب الأسف فهى مرحلة لا يمكن تجنبها من مراحل ربط الزراعة إلى اقتصاد أضخم .

فإذا أردت أن ترى المفارقة فوازن بين أحوال الفلاح البدائى وبين الأحوال الزراعية فى كاليفورنيا الحديثة ، أو كندا ، أو أستراليا ، أو الأرجنتين . فكل شىء ينتج للتصدير ؛ وإن الرخاء الذى يسببه التصدير يتوقف على أشياء بعيدة كالحرب فى أوربا ، أو مشروع مارشال ، أو خفض سعر الجنيه الاسترلينى . وكل شىء يرجع إلى السياسة ، كما إذا كانت جبهة الفلاحين **Farm Block** قوية فى واشنطون ، وإذا كان ثم سبب للخوف من أن تصبح أرجنتينا صديقة لروسيا ، وهلم جرا . وقد يظل بعض الفلاحين مع ذلك مستقلا ، ولكنهم فى الحقيقة فى قبضة المصالح المالية الواسعة التى تهتم بتصريف الشئون السياسية . ولا يقل هذا التساند إلى أية درجة — بل ربما ازداد — إذا كانت البلاد المعنيّة اشـــتراكية ، كما إذا كانت حكومة الاتحاد السوفييتى والحكومة البريطانية تتفقان على استبدال الطعام بالآلات . كل أولئك من آثار المنهج العلمى فى الزراعة . وقد كتب مالتوس فى مبدأ القرن التاسع عشر : « لقد بدا فى تيه التأملات (تلميحا بالطبع أكثر مما كان تصريحا) أن أوربا يجب أن تزرع قمحها فى أمريكا ، وأن تكرس نفسها للصناعة والتجارة فحسب . » وقد ظهر أن هذه التأملات لم تكن شروداً ذهنياً .

يكفى هذا فيما يختص بالزراعة . أما فى الصناعة فإن التكامل الذى يسببه المنهج العلمى أكبر من ذلك وأكثر اتصالا بها .

وأوضح نتائج الصناعة أن نسبة من السكان تعيش فى المدن أكبر مما كان من قبل . وساكن المدينة كائن أكثر اجتماعيه من الزارع وأكثر تأثرا بالمناقشة . وهو على وجه عام يعمل فى جماعات ، ووسائل تسليته تعرضه لأن يكون فى جماعات أكبر. وإن مجرى الطبيعة من تقلب النهار والليل ،والصيف والشتاء ،والمطر والصحو ، لا تؤثر فيه إلا قليلا ، فلا يمر به من الظروف ما يجعله يخشى أن يصاب بالصقيع أو الجدب أو المطر المفاجىء ، بل إن الذى يهمه هو بيئته الإنسانية ، ومكانه فى المنظمات المختلفة على وجه الخصوص .

خذ رجلا يعمل فى مصنع ،وتأمل كيف تؤثر فى حياته تنظيمات متعددة : فثمة المصنع نفسه أول كل شىء ، ثم أية منظمة كبرى قد يكون المصنع جزءا منها ، ثم هناك بعد ذلك النقابة التى ينتمى إليها الرجل ، ثم حزبه السياسى ،وربما كان يحصل على مسكنه عن طريق جمعية مبان أو سلطة عامة ، ويذهب أطفاله كذلك إلى المدرسة . فإذا كان يقرأ صحيفة أو يذهب إلى السينما ، أو ينظر إلى مباريات كرة القدم فهذه أشياء تقوم بها منظمات قوية . ثم هو معتمد بعد ذلك اعتمادا غير مباشر عن طريق مستخدميه على هؤلاء الذين يشترون منهم المادة النفل (الخام) ، وعلى هؤلاء الذين يبيعون لهم السلعة المنتجة .وثمة فوق كل أولئك دولة تفرض عليه الضرائب ، وربما تأمره فى أية لحظة أن يذهب فيموت فى الحرب ، وتحميه فى نظير ذلك من القتل والسرقة ، مادام السلام قائما ، وتبيح له أن يشترى بُلْـغَةً من الطعام ثابتة الـكمية .

وصاحب رأس المال فى انجلترا الحديثة مشمول فى ذلك كما لا يكف عن ترديد هذا على أسماعنا ؛ فنصف ربحه أو أكثر من نصفه يذهب إلى الحكومة التى يكرهها. ومشروعاته واقعة تحت سيطرة قاسية ، وهو بحاجة إلى تصريح لـكل شىء ، وهو مضطر الى إبداء الأسباب فى رغبته فى الحصول على هذه الأشياء . وللحكومة وجهة

نظر فيما يختص بالمكان الذى يجب أن يبيعها فيه . وربما كانت المادة النفل (الخام) عزيزة المنال ، وعلى الأخص إذا كانت من منطقة الدولار . وفى كل معاملاته مع من يستخدمهم يتحتم عليه أن يكون حريصا حتى يتجنب إثارة إضراب . وهو شديد الخوف من الكساد ، ويتساءل إذا كان سيستطيع أن يحافظ على أداء أقساط تأمينة على الحياة . ويصحو فى منتصف الليل مبللا فى عرقه البارد ، لأنه رأى فى المنام أن الحرب قد نشبت ، وأن مصنعه وبيته وزوجته وأطفاله قد انمحت جميعها من الوجود . ولكن بالرغم من أن حريته مهدرة بتعدد المنظمات على هذا النحو يشغل نفسه بالإكثار من المنظمات : وحدات مسلحة جديدة ، واتحاد غربى ، وميثاق الأطلنطى ، ودهالبز ، واتحادات صناعات متماركة ، وقد يتحدث فى اللحظات العاطفية عن حرية التصرف **laisser faire** ، ولكنه فى الحقيقة لا يسر أى أمل فى السلامة إلا عن طريق المنظمات الجديدة التى تناهض المنظمات الموجودة فعلا ؛ والتى يكرهها ، لأنه يعلم أنه باعتباره وحدة منعزلة لا يمكن أن تكون له قوة ، وأن بلاده باعتبارها دولة منعزلة لا يمكن أن تكون قوية .

وقد تسببت زيادة التنظيم فى وجود وظائف جديدة قوية ، لأن كل منظمة مضطرة إلى أن يكون لها موظفون تنفيذيون تتركز فيهم قوتها فى أية لحظة . صحيح أن الرسميين فى العادة خاضعون للسيطرة ، ولكن هذه السيطرة قد تكون بطيئة وغير محكمة . ولكل رسمى من الفتاة التى تبيع الطوابع فى مكتب البريد الى رئيس الوزراء جزء من سلطة الدولة فى الوقت الحاضر ، وتستطيع أن تشكو الفتاة اذا كانت معاملتها سيئة ، وتستطيع أن تدلى بصوتك ضد رئيس الوزراء فى الانتخابات القادمة اذا لم تعجبك سياسته ؛ ولكن الفتاة ورئيس الوزراء كليهما يستطيعان أن يستمتعا بمرتبيهما مدة طويلة قبل أن يكون لسخطك عليهما أى أثر . وهذا الازدياد فى قوة الرسميين منبع دائم من منابع المضايقة لكل من عداهم . وهم فى كثير

من البلاد أقل أدباء منهم فى انجلترا ؛ ويبدو مثلا أن الشرطة وعلى الأخص فى أمريكا تظن أنك استثناء نادر إذا لم تكن مجرما . وهذا الطغيان من جانب الرسميين واحدة من أسوأ النتائج لازدياد التنظيم ؛ ومن أهم الأشـــياء أن نوجد ضمانات ضد هذه النتيجة إذا كان للمجتمع العلمى ألا يكون مصدر متاعب لكل الناس ، إلا لأرســـتوقراطية وقحة مكونة من الموظفين المتزمتين فى دقتهم Jacks - in -office . ولـكننى فى الوقت الحاضر مشغول بالوصـف لا بخطط الإصلاح .

وقوة الرسميين تتميز فى العادة من قوة هؤلاء الذين يسـيطرون من الناحية النظرية سيطرة نهائية ؛ ومع أن المديرين فى الشركات المساهمة ينتخبون اسميا بواسطة المساهمين ينجحون فى العادة بوسائل مختلفة فى أن يخلدوا أنفسهم فى مناصبهم وأن يحصلوا عند الضرورة على مديرين جدد بواسطة استفتاء الأعضاء الحاليين Co - option استفتاء يتنكر فى صورة انتخاب . ومن بداهات السياسة البريطانية أن معظم الوزراء يجدون من الصعب تصريف موظفيهم الذين يعلون السياسة من الناحية العملية فى المسائل الحزبية التى تتكشف أمام الجمهور . والقوات المسلحة فى كثير من البلاد عرضة للخروج على الطاعة وتحدى السلطات المدنية . وقد تحدثت من قبل عن الشرطة ولـكن عندى شيئا آخر أحب أن أقوله بشأنها . فى البلاد التى يدخل فيها الشيوعيون حكومات ائتلافيه يحاولون دائما أن يطمئنوا إلى الشرطة . حتى إذا اطمأنوا إليهم استطاعوا أن يدبروا المؤامرات ، ويلقوا القبض ، ويرغموا على الاعتراف دون قيد . وينتقلون بهذه الوسيلة من كونهم مشتركين فى حكومة ائتلافية إلى كونهم كل الحـكومة . ومشـكلة جعل الشرطة تنصاع للقانون مشكلة صعبة جدا ، وهى مثلا بعيدة عن الحل فى أمريكا ، حيث يتعرض الناس لإرغام قوم على الاعتراف

باستعمال تعذيب من « الدرجة الثالثه » ، وهم قد يكونون أبرياء (انظر Our Lawlesse Police تأليف Ernest Hopkins دار فايكنج للنشر بنيويورك) .

إن قوة الرسميين الزائدة نتيجة حتمية للدرجة الكبرى من التنظيم الناجمة عن المنهج العلمي ، وفيها من العيب أنها عرضة لأن تصبح قوة عديمة الشعور بالتبعات فيما بينها وبين نفسها ، كقوة طواشيّ الأباطرة ، ومحظيات الملوك في الأزمنة الغابرة . والكشف عن طرق السيطرة عليها أهم المشاكل السياسية في الوقت الحاضر . ولقد احتج الأحرار بنجاح على قوة الملوك والأرستوقراطيين ، واحتج الاشتراكيون ضد قوة الرأسماليين ؛ ولكن قوة الرسميين ما لم تحصر في حدودها فسوف لا يكون معنى الاشتراكية أكثر من إحلال جماعة من السادة في محل الأخرى ، وسيرث الرسميون كل القوة السابقة التي استمتع بها الرأسماليون . وحين عشت في الريف الأمريكي عام ١٩٤٢ اتخذت بستانيا يعمل بعض الوقت ، وكان ينفق معظم يومه في عمل الذخيرة . وقد أخبرني مع شعوره بالانتصار أن الاتحاد الذي ينتمي إليه قد ضمن عدم استخدام أحد ممن لا ينتمي إلى الاتحاد Closed shop . وبعد ذلك بقليل أخبرني دون شعور بالانتصار أن اشتراك الاتحاد قد ارتفع ، وأن النقود الزائدة ذهبت جميعها لترفع مرتب سكرتير الاتحاد . وبالنسبة لما كان يعتبر حالة حرب بين العمل ورأس المال كان يمكن أن يكون كل تحريض ضد السكرتير خيانة . وتدلنا هذه القصة المختصرة على عجز الجمهور أمام الرسميين منه ، حتى حيث توجد ديمقراطية اسمية كاملة .

وأحد معايب قوة الرسميين أنهم عرضة لأن يكونوا بعيدين تماما عن العلم بالأشياء التي يسيطرون عليها . فماذا يعلم الموظفون في وزارة التربية عن التربية ؟ إنهم لا يعلمون إلا ما يذكرونه بغموض عن المدارس العامة ، والجامعة التي كانوا فيها منذ

عشرين أو ثلاثين عاما مضت . وماذا تعرف وزارة الزراعـــة عن السَّلجم mangold wurzels ؟ إنها تعرف فقط كيف يُكْـتَبُ اسمه . وماذا تعلم وزارة الخارجية عن الصين الحديثة ؟ .

لقد كنت على صلة عملية مع بعض الرسميين الدائمين الذين يحددون مجرى السياسة البريطانية بالنسبة للشرق الأقصى ، وذلك بعد أن عدت من الصين عام ١٩٢١ ، فوجدت أن جهلهم لا يعلو عليه شيء إلا غرورهم . وقد اخترعت أمريكا تعبـــير « رجال نعم » أو « Yes men » ليدل على هؤلاء الذين يتملقون كبار أصحـاب السلطة التنفيذية . ولم نعد فى انجلترا نصـــادف المتاعب من « رجال لا » أو « No men » الذين يشغلون أنفسهم باستخدام الجهل الماكر فى معارضــة أو تحطيم كل خطة يقترحها هؤلاء الذين عندهم المعرفة والخيال والتصرف الجرىء . وأخشى أن أقول إن « رجال لا » عندنا هم ألف مرة أشدّ ضررا من « رجال نعم » الأمريكيين . وإذا كان لنا أن نستعيد الرخاء فسوف نضطر إلى إيجاد طرق لتحرير النشاط والتصرف الجرىء من السيطرة المحزنة التى تفرضها الجهالات الدستورية المتزمتة .

ومسألة حدود الحرية الفردية بحاجة إلى علاج يختلف عن ذلك الذى وصـفه كتاب القرن التاسع عشر من أمثال «ميل» ، وذلك بسبب زيادة التنظيم . وأعمال الرجل الفرد تافهة كمبدأ عامّ ، ولـكن أعمال الجماعة أكبر أهمية مما كانت فى القديم . خذ مثلا رفض العمل : فإذا اختار رجل واحد برغبته أن يكون متعطلا فربما اعتبر هذا شأنا خاصا به ، فيفقد أجره وينتهى الأمر عند هذا الحد ، ولـكن إذا كان هناك إضراب فى صناعة حيوية فإن المجتمع جميعه يقاسى . ولست أناقش مسألة ما إذا كان حق الإضراب يجب أو لا يجب أن يلغى ، ولـكننى أرى فحسب أنه إذا

احتفظ به فيجب أن يكون ذلك لأسباب تتعلق بهذا الأمر الخاص ، لا على أساس الحريه الشخصية عموما . وثمة أنواع متعددة من النشاط الذى يهم كل إنسان فى البلاد المنظمة تنظيما دقيقا ، وبدون هذه الأنواع من النشاط لا يمكن تجنب المتاعب العامة . ويجب أن ترتب الأمور بحيث لا تشعر المجموعات الضخمة أن من مصلحتها أن تعلن الإضراب . ويمكن عمل هذا بالتحكيم والصلح . أو كما هو الحال فى دكتاتورية العمال بالتجويع وأعمال الشرطة . ولكن ذلك يجب أن يعمل بطريقة أو بأخرى إذا أراد أى مجتمع صناعى أن يعيش فى رخاء .

والحرب مثال أكثر تطرفا من الإضراب ، ولكنها تستدعى مسائل مشابهة جدا خاصة بالمبدأ . فحين يشتبك رجلان فى مبارزة فالمسألة تافهة ، ولكن حين يقاتل مائتا مليون شخص مائتى مليون شخص آخر فالمسألة جد خطيرة . وتصبح الحرب أكثر خطورة مع كل زيادة فى التنظيم . وقد ظل معظم السكان إلى يومنا هذا حتى فى أمم نشتغل بخصومات كحروب نابليون مهتمين بتتبع السلام ، وهم كقاعدة لم تضطرب عادات حياتهم المعتادة . وكل شخص الآن سواء فى ذلك النساء والرجل يشتغل بعمل من أعمال الحرب . وإن تغير الأماكن والوظائف ليجعل السلام حين يأتى أسوأ من الحرب تقريبا . ومنذ نهاية الحرب الأخيرة ماتت أعداد ضخمة من الرجال والنساء والأطفال فى حالات من البؤس المحزن ، وأصبحت ملايين كثيرة من الناجين متجولين بلا منازل ، ومقطوعين بلا عمل ولا أمل . فهم حمل على أنفسهم بقدر ما هم حمل على من يعولونهم . ومثل هذا يتوقع حين تتسبب الهزيمة فى فوضى المجتمعات الدقيقة التنظيم .

والحق فى إعلان الحرب كالحق فى إعلان الإضراب ، ولكنه أشد خطراً إلى درجة أكبر جدا فى عالم يحكمه المنهج العلمى . ولا يمكن أن يمحى أيهما ببساطة ما دام ذلك المحو سيفتح الطريق إلى الطغيان . ولكننا يجب أن نعترف فى كل حالة

أن الجماعات لا يمكنها أن تدعى باسم الحرية أن لها الحق فى إيقاع أذى كبير على الآخرين . أما فيما يخص الحرب فلا بد أن يصرف النظر عن مبدأ السيادة القومية غير المقيدة الذى اعتز به الأحرار فى القرن التاسع عشر ، ويعتز به الكرملين فى الوقت الحاضر . ولا بد من إيجاد الوسائل لإخضاع علاقات الشعوب لحكم القانون ، حتى لا تعود أمة بمفردها تستطيع كما تفعل فى الوقت الحاضر أن تكون حكماً فى قضيتها الخاصة . فإذا لم يحدث هذا فسيعود العالم سريعا إلى البربرية ؛ وسيختفى المنهج العلمى فى هذه الحالة مع العلم ،وسيستطيع الناس أن يظلوا مشاغبين ، لأن شغبهم لم يعد يسبب لهم ضرراً كبيراً . ومن الممكن على أى حال أن يفضل بنو الإنسان البقاء والرخاء على الفناء والبؤس ؛ وإذا كان الأمر كذلك فلا بد للحرية القومية أن تُحَدّ إلى درجة كافية .

ومسألة الحرية كما رأينا تحتاج إلى استقصاء من جديد ؛ فهناك أشكال من الحرية مرغوب فيها ، وتلك مهددة إلى درجة خطيرة ، وثمة أشكال أخرى من الحرية مرغوب عنها ، وهى صعبة الكبح .وثم خطر من أن كليهما يزداد بسرعة . ففى أى تنظيم نتأمله نجد قوة الرسميين أو ما يمكن أن نسميه « الحكومة » تميل إلى أن تصبح زائدة على الحاجة ،وأن تخضع الأفراد لألوان مختلفة من الطغيان . والنزاع بين التنظيمات المختلفة من جهة أخرى يتزايد ضرره كلما اكتسبت به هذه التنظيمات سلطة أكبر على أعضائها . والطغيان فى الداخل ، والنزاع فى الخارج ، يقابل كل منهما الآخر . فكلاهما ينبع من نفس المصدر الذى هو شهوة القوة . وإن الدولة الاستبدادية فى الداخل ستكون راغبة فى الحرب فى الخارج ، والسبب فى كلتا الحالتين أن القائمين على الحكم فى الدولة يرغبون فى أكبر ما يمكن الحصول عليه من شدة السيطرة على حياة الآخرين . والمشكلة المزدوجة الناتجة عن ذلك وهى الخاصة بالاحتفاظ

بالحرية داخليا ، وانتقاصها خارجيا مشكلة يجب على العالم أن يحلها وأن يحلها سريعا إذا قدر للمجتمعات العلمية أن تبقى .

دعنا نتأمل لحظة فى علم النفس الاجتماعى المتصل بهذا الموقف .

إن التنظيمات تقع فى نوعين : هذه التى تهدف إلى عمل شىء ، وتلك التى تهدف إلى منع شىء أن يتم عمله . ومكتب البريد مثل للنوع الأول ، وفرقة المطافىء مثل للنوع الثانى . ولا يستدعى أحد هذين نقاشا كبيرا ، لأنه لا يوجد من يعارض فى حمل الرسائل ، ولا يجرؤ مجرمو الحرائق على الجهر برغبتهم فى أن يروا المبانى تحترق . ولكن حين يكون الأمر المراد منعه قد تم على يد الإنسان لا من الطبيعة فالمسألة تختلف . إن القوات المسلحة لأمة ما توجد كما تدعى كل أمة لتمنع عدوان الأمم الأخرى . ولكن القوات المسلحة للأمم الأخرى توجد للقيام بالعدوان ؛ أو هكذا يعتقد الكثير من الناس . فإذا قلت شيئا ضد القوات المسلحة فى بلادنا فأنت خائن يتمنى أن يرى أرض آبائه تسحق تحت أقدام الغزاة الغاشمين . وإذا دافعت من جهة أخرى عن أمة محتملة العداوة رأت أن القوات المسلحة ضرورية لحمايتها فأنت تثلب بلادك التى لا يدعوك إلى الشك فى غيرتها على السلام إلا الحقد الجموح . لقد سمعت كل ذلك يقال عن المانيا على لسان سيدة ألمانية فاضلة جدا فى عام ١٩٣٦ فى خلال ثناء على هتلر .

وينطبق نفس الشىء وإن كان انطباقا أقل شدة على التنظيمات المتنازعة الأخرى . لم يستطع البستانى الذى استخدمته فى بنسيلفانيا أن ينتقد سكرتير اتحاده لخوفه من إضعاف مركز الاتحاد فى نزاعه مع الرأسماليين . ومن الصعب على رجل له اعتقادات سياسية جازمة أن يعترف بعيوب السياسيين فى حزبه ، أو بمزايا السياسيين فى الحزب المنافس .

وهكذا يحدث أنه كلما كان لمنظمةهدف تنافسى تردد أعضاؤها فى نقد الرسميين فيها ، ويميلون إلى الإغضاء عن الاغتصابات والأعمال التحكمية للسيطرة التى ينكرونها بشدة لو لم تسيطر على تفكيرهم عقلية الحرب . وعقلية الحرب هذه هى التى تعطى الرسميين والحكومات فرصتهم . ومن الطبيعى من ثم أن الرسميين والحكومات ميالون لأن يشجعوا عقلية الحرب .

والمهرب الوحيد أن يحل أكبر عدد ممكن من المنازعات بالطرق القانونية لا بمحاولة التغلب . وهنا كذلك يمشى الاحتفاظ بالحرية الداخلية والسيطرة الخارجية جنبا إلى جنب ، ويتوقف كلاهما لأول وهلة على الحد من الحرية ، ويقصد به توسيع سلطة القانون والقوة العامة الضرورية لفرضه .

وأنا أحس فيما قلته حتى الآن فى هذا الفصل أننى لم أؤكد المكاسب التى نجنيها من المنهج العلمى تأكيدا كافيا . وواضح أن الأمريكى المتوسط فى أيامنا هذه أغنى بكثير من الانجليزى المتوسط فى القرن الثامن عشر ، ويكاد هذا التقدم أن يعود بجملته إلى المنهج العلمى . فلم يكن المكسب فى حالة انجلترا كبيرا إلى درجته مع الولايات المتحدة ، ولكن مرجع ذلك إلى أننا أنفقنا الكثير على قتل الألمان . ولكن هناك تقدما ماديا كبيرا حتى فى انجلترا . فبالرغم من نقص المواد الغذائية يكاد كل إنسان أن يجد كفايته مما يأكل ليكون سليما ونشطا . وعند معظم الناس ما يدفئهم فى الشتاء ، وما يضىء لهم بعد غياب الشمس . وليست الطرقات مظلمة بالليل إلا فى أيام الحرب ، ويذهب كل الأطفال إلى المدرسة ، ويستطيع كل إنسان أن يستمتع بعناية طبية ، وثمة محافظة على الحياة والملكية (فى وقت السلام) أكثر مما كان فى القرن الثامن عشر . وتعيش نسبة من السكان أقل بكثير مما كان فى القرن الثامن عشر فى أكواخ قذرة ، والرحلة أسهل إلى حد كبير ، ويمكن الحصول على تسليات أكثر مما كان فى الأيام الخالية . ويستطيع التحسن

فى الصحة أن يكون بنفسه كافيا لتفضيل عصرنا هذا على تلك الأيام السابقة التى يحنّ إليها بعض الناس . وأظن بصفة عامة أن هذا العصر يعتبر متقدما على كل ما سبقه إلا بالنسبة للأغنياء والممتازين .

ومرجع ما عندنا من ميزات فى جملته أو يكاد أن يكون فى جملته إلى أن أى قدر من العمل الآن أكثر إنتاجا مما كان فى أيام ما قبل المنهج العلمى . لقد كنت فى الماضى أعيش على قمة تل تحيط بها الأشجار ، فكنت أجمع الأحطاب بمنتهى السهولة . ولكننى كنت إذا أردت أن أختزن كية معينة من الوقود أنفق مجهودا إنسانيا أكبر مما يتطلبه إحضار هذا الوقود عبر انجلترا فى صورة فحم ؛لأن استخراج الفحم وإحضاره كان يتم بطريقة علمية ، على حين لم أكن أستطيع إلا أن أستخدم طرقا بدائية فى جمع الحطب . ولم يكن الرجل الواحد فى الأيام الخالية ينتج أكثر بكثير من ضروريات شخص واحد . وكانت قلة أرستوقراطية تعيش فى رفاهية ، وكانت طبقة وسطى صغيرة تعيش عيشة مريحة ، ولكن الغالبية العظمى من السكان لم يكن عندها أكثر مما تتطلبه المحافظة على حياتها . حقا إننا لا ننفق فائض عملنا دائما بطريقة حكيمة . ونحن نستطيع أن نحتفظ بقسط أكبر من أجل الحرب مما كان أسلافنا يستطيعون . ولكن الخسائر الكبرى فى وقتنا هذا يكاد أن يكون كلها راجعاً إلى الإخفاق فى توسيع سلطة القانون فى حل المنازعات التى لو تركت لحكم القوة لأصبحت بسبب قدراتنا الحاضرة أكثر ضررا مما كانت فى القرون الخالية . وإن بقاء هذه الفوضى التى كانت محتملة فى الماضى يجب أن يعالج إذا أردنا لحضارتنا أن تبقى . وعندما تصبح الحرية ضارة يجب أن نلتفت إلى القانون .

الفصل الثالث

المنهج العلمى تحت الحكم الطائفى

أقصد بالحكم الطائفى oligarchy أى نظام تنحصر السلطة النهائية فيه فى قسم من المجتمع ، كالأغنياء دون الفقراء ، أو البرتستانت دون الكاثوليك ، أو الأرستقراط دون عامة الشعب ، أو البيض دون الملونين ، أو الرجال دون النساء ، أو أعضاء حزب سياسى دون بقية الأحزاب . وقد يكون النظام مغرقاً فى الطائفية أو أقل إغراقاً فيها تبعاً للنسبة المئوية للسكان غير المشتركين فيه . والملكية المطلقة أكثر أمثلة الطائفية تطرفاً .

إن نظم الحكم الطائفى قد قامت فى الماضى عادة على الوراثة أو الثروة أو الروابط الشعبية ، وذلك فيما عدا سيطرة الرجل التى كانت عامة حتى القرن الحاضر . وقد جاء المتطهرون Puritans خلال الحرب الأهلية الإنجليزية بنوع آخر من الحكم الطائفى سمى حكم القديسين Rule of the Saints . وقد اشتمل فى جوهره على قصر ملكية السلاح على أتباع مذهب سياسى واحد ، فاستطاع هؤلاء بهذه الطريقة أن يسيطروا على الحكومة ، بالرغم من كونهم أقلية ليس لها دعوى تقليدية على السلطة . ومع أن هذا النظام قد انتهى فى إنجلترا بعودة الأحوال كما كانت Restoration بعث فى روسيا عام ١٩١٨ ، وفى إيطاليا عام ١٩٢٢ ، وفى ألمانيا عام ١٩٣٣ ، وهو الآن أكثر أمثلة الطائفية حيوية . ومن ثم كان الشكل الذى سأمنحه تأملا خاصاً .

لقد رأينا أن المنهج العلمى يزيد من أهمية التنظيمات ، ومن ثم يزيد من المدى

الذى تتحكم به السلطة فى حياة الفرد . ويتبع ذلك أن الحكم الطائفى العلمى أكبر قوة من أى حكم طائفى آخر وجد قبل العهد العلمى . وثمة ميل أراه نتيجة حتمية إذا لم يجر مقاومته بوعى إلى توحيد التنظمات ، وبذلك يزاد حجمها حتى تكاد فى النهاية أن تندمج جميعاً فى الدولة . والحكم الطائفى العلمى مقدور عليه من ثم أن يصبح حكما « مطلقاً » totalitatran ، أى أن تصبح كل الأشكال الهامة للقوة فيه احتكارا للدولة . إن النظام المركز فى مصدر واحد monolitic ذو مزايا تكفى لأن تجعله جذاباً بالنسبة لكثير من الناس ، ولكن نقائصه تبدو فى نظرى أكبر بكثير من مزاياه . وإن كثيراً من الناس لأسباب لا أعلمها يحبون النظام إذا كان روسيا ويكرهون نفس النظام إذا كان ألمانيا . وأما مضطر إلى أن أظن أن هذا يرجع إلى قوة الشعارات ، فهؤلاء الناس يحبون كل ما يسمى «يساريا» دون أن ينظروا فيما إذا كان لهذا الشعار أى مبرر .

إن نظم الحكم الطائفى فى التاريخ كله قد اهتمت بمصالحها أكثر مما اهتمت بمصالح بقية المجتمع . ومن الغباء أن نضيق بها لهذا السبب من الناحية الخلقية ، فالطبيعة الإنسانية فى معظمها وفى مجموعها محبة لذاتها egoistic ، وإن قسطا معقولا من حب الذات فى معظم الحالات ضرورى للبقاء . والذى جاء بحكومة الأحرار لصالح الديموقراطية هو الثورة على أنانية حكم الطوائف السياسية الماضية ؛ كما أن الذى جاء بالاشتراكية هو الثورة على الطوائف الاقتصادية . ومع أن كل التقدمين جميعا اعترفوا بشرور نظم الحكم الطائفى فى كل تاريخ الإنسانية انصاع كثير من التقدميين إلى الجدل فى صالح نوع جديد من الحكم الطائفى . ويقول هذا الجدل : نحن التقدميين حكماء خيرون ، نعلم ما يحتاجه العالم من الاصلاحات . ولو كنا أولى قوة لخلقنا فردوسا » وهكذا بعد أن يخدرهم الشعور بكمال ذواتهم نتيجة لغرورهم بما يعتبرونه حكمة ورغبة فى الخير من ناحيتهم ، يبدأون فى خلق طغيان جديد

أكثر خطرا من أى طغيان عرف من قبل . وآمل أن أعرض فى هذا الفصل أثر العلم فى مثل هذا النظام .

وأول شيء أن نظام حكمهم يتوقف فى جوهره على مبدأ dogma . لأن هؤلاء الطائفيين المحدثين أتباع مذهب معين ، ويبنون استحقاقهم للسلطة على صواب هذا المذهب ، وكل من شك فى القواعد التى تضعها الحكومة شك في سلطتها المعنوية ، وأصبح من ثم ثائرا عليها . وعند ما يكون نظام الحكم الطائفى هذا لا يزال جديدا يصبح من المؤكد أن هناك بعض المذاهب الأخرى التى يتبعها الناس باعتقاد مماثل ، ويمكن أن تستولى على الحكومة لو استطاعت . ومثل هذه المذاهب يجب أن تخضع بالقوة ، لأن قاعدة حكم الأغلبيه لم يعد معمولا بها . ويتبع ذلك أنه لا يمكن أن يكون ثمة حرية للصحافة ، ولا حرية للمناقشة ، ولا حريه للنشر . ويجب أن توجد أداة حكومية واجبها أن تقرر المبادىء الصحيحة ، وتعاقب على الإلحاد فيها . وقد بدا لنا من تاريخ محاكم التفتيش ما يمكن أن تكونه هذه الأداة الحكومية . فى طلبها العادى لفرض سلطتها تبحث عن أنواع من الإلحاد أدق وأدق . إن الكنيسة بعد ما اكتسبت قوة سياسية قد أحدثت تحديدات أكثر دقة لمذهبها ، واضطهدت ما يبدو لنا فى صورة انشقاقات ميكروسكوبية عن المذهب الرسمى ، ويحدث نفس الشيء تماما فى الدول الحديثة التى تقصر السلطة السياسية على أتباع مذهب معين .

وإن كان ما ينتج عن ذلك من سيطرة على الرأى يتوقف بطرق مختلفة على المنهج العلمى . وحيث يذهب الأطفال إلى المدارس ، وتقع كل المدارس تحت سلطة الحكومة تستطيع السلطات أن تغلق عقول الصغار دون كل شيء يتنافى مع المذهب الرسمى . والطباعة مستحيلة بلا ورق ، وكل الورق فى يد الدولة ؛ ثم إن

الإذاعة والسينما احتكاران عامان بنفس الدرجة. والإمكانية الوحيدة الباقية للدعاية دون الخضوع لسيطرة رسمية هي الهمس في السر من فرد إلى آخر . ولكن هذا بدوره صار خطرا إلى حد مزعج بسبب التحسينات الداخلة على فن التجسس . إذ يتعلم التلاميذ في المدارس أن من واجبهم أن يشوا بوالديهم إذا سمحوا لأنفسهم بنطق عبارات هدامة في محيط العائلة . ولا يستطيع إنسان أن يجزم أن أخلص أصدقائه سوف لا يشي به إلى الشرطة، وهذا الرجل الواشي نفسه ربما كان في موقف متعب ، وربما عرف أنه إذا لم يكن كفئا في التجسس فسوف يلحق الضرر بزوجه وأولاده . وليس كل ذلك تصورا بل إنه يحدث في كل يوم وكل ساعة، وليس ثمة أوهى سبب لأن نتوقع من نظام الحكم الطائفي أي شيء آخر .

ولا يزال الناس يقشعرون لشناعة رجال مثل كاليجولا ونيرون ، ولكن ما اقترفه هذان يتضاءل إلى جانب جرائم الطغاة المحدثين . لقد كانت الحياة اليومية في روما تسير كالعادة ، حتى في أيام شر الأباطرة ، إلا بالنسبة للطبقة العليا . ولقد تمنى كاليجولا أن لو كان لأعدائه جميعا رأس واحدة فحسب، وكم كان يمكن أن يحسد هتلر لو عرف عن حجراته التي خصصها للإعدام في « آشفيتز » . وقد فعل نيرون كل ما في وسعه لينشيء نظاما تجسسيا يشتم رائحة الخونة ، ولكن مؤامرة هزمته في النهاية ؛ ولو أنه كان في حراسة البوليس السري الروسي (N. K. V. D.) فربما مات في سريره لكبر سنه ؛ وهذه أمثلة قليلة للنعم التي أنعم بها العلم على الطغاة .

انظر بعد ذلك في النظام الاقتصادي الذي ينسب إلى نظام الحكم الطائفي . ولقد كان لنا نحن في انجلترا نظام من هذا النوع في أوائل القرن التاسع عشر ، وتستطيع أن تقرأ في كتب هاموند إلى أي حد كان هذا النظام ممقوتا . وقد كانت نهايته بصفة رئيسية نتيجة للنزاع بين ملاك الأرض وبين أصحاب الصناعات . فقد تصادق ملاك الأرض والأجراء الذين في المدن ، كما تصادق أصحاب الصناعات

والأجراء الذين فى الريف . وبين هذين مرت قوانين المصانع ، ونقضت قوانين القمح Corn Laws ،وفى النهاية اعتنقنا الديموقراطية ، فجعلت النزر اليسير من العدالة الاقتصادية أمرا لا يمكن تجنبه .

أما فى روسيا فقد اختلف التطور عن هذه الصورة ؛ إذ وقعت الحكومة فى أيدى قوم نصبوا أنفسهم للدفاع عن الطبقة العاملة ، واستطاعوا بواسطة حرب أهلية أن ينشئوا دكتاتورية عسكرية . وقد انتجت السلطة التى لا تقدر المسئولية آثارها بالتدريج ؛ فهؤلاء الذين أمسكوا أزمة الجيش والشرطة لم يروا ذلك فرصة لإنشاء عدالة اقتصادية ، فبعثوا بالجند ليستولوا بالقوة على القمح من أيدى الفلاحين الجائعين الذين ماتوا بالملايين بسبب ذلك . أما الأجراء الذين حرموا حق الإضراب ولم يتمكنوا من انتخاب نواب عنهم يدافعون عن قضيتهم ، فقد انخفض مستواهم إلى الحصول على مجرد ما يحفظ الحياة .وفرق النسبة المئوية بين مرتبات ضباط الجيش ومرتبات الجنود أكبر فى روسيا منه فى أى بلد غربى . ويعيش الذين يتمتعون بالمناصب الكبيرة فى العمل فى حالة بذخ ، على حين يقاسى الموظف العادى بدرجة ما كان مثيله يقاسيه فى انجلترا منذ مائة وخمسين عاما مضت ، ولكنه حتى هو يعتبر بين المحظوظين .

ومن وراء النظام الذى يسمونه حرية العمل(free labour) نظام آخر هو نظام العمل الجبرى (froced labour) ومعسكرات الاعتقال . ولا يمكن التعبير عن الحياة فى هذا التنظيم . فالساعات طويلة إلى درجة لا تحتمل ، ولا يكفى الطعام إلا للإبقاء على حياة العامل لمدة سنة أو نحوها فحسب،والملابس فى الشتاء القطبى قليلة حتى إنها لا تكاد تكفى المرء فى الصيف الإنجليزى . ويقبض على الرجال والنساء من منازلهم فى منتصف الليل فلا تعقد لهم محاكمة ، ولا تعلن عليهم تهمة فى الغالب، ثم يختفون،ولا يجاب على أسئلة أسراتهم ،ثم يموتون بعد سنة أو نحوها

فى شمال شرق سيبيريا، أو على شاطىء البحر الأبيض؛ ويكون موتهم بسبب البرد والإجهاد وسوء التغذية . ولكن ذلك لا يسبب أية مضايقة للسلطات ، إذ أن هناك الكثيرين ممن يحلون محلهم .

وهذا النظام المفزع ينمو بسرعة، ولا يمكن إلا بالتخمين أن تحدد عدد الناس الذين يرسلون إلى العمل الجبرى ، يقول البعض إنه ستة عشر فى المائة من مجموع الذكور البالغين فى الاتحاد السوفيتى،وتتفق جميع المصادر الموثوق بها (إلا الاتحاد السوفيتى وأصدقاءه) على أنه ثمانية فى المائة على الأقل . ومع أن نسبة النساء والأطفال كبيرة لا تزال أقل من نسبة الذكور البالغين .

والعمل الجبرى مرضى عنه من السلطات حتما ، لأنه اقتصادى، ويميل بمنافسته لحرية العمل أن يسىء أحوال العمال الأحرار، ومن طبيعة الأشياء أن العمل الجبرى يجب أن ينمو ، ولا يبقى خارجه إلا الجيش ، والشرطة ، والرسميون فى الحكومة ؛ إلا إذا قضى على هذا النظام .

ومن وجهة نظر الاقتصاد القومى يستمتع هذا النظام بميزات عظيمة . فقد جعل من الممكن أن تنشأ قناة بين البحر الأبيض وبحر البطليق. وأن يباع الخشب فى مقابل الآلات . ولقد زاد من فائض العمل الذى يوجه إلى الإنتاج الحربى . ثم هو يقلل من السخط بما يوحى إلى الناس من فزع ، ولكن قيل لنا أن هذه أشياء ضئيلة إذا قيست بما يمكن أن يتم فى المستقبل القريب . فسوف تستخدم الطاقة الذرية (كما قيل على الأقل) لتحويل مياه نهر يينيسى الذى يجرى الآن دون فائدة فى الدائرة القطبية حتى تخلق هذه المياه الخصب فى الأقاليم الصحراوية فى آسيا الوسطى .

ولكن روسيا إذا ظلت خاضعة لهذه الأرستوقراطية القليلة المستبدة حين يتم

هذا العمل فلا سبب يدعونا إلى الاعتقاد بأن جمهرة الشعب سيسمح لها بالاستفادة . إذ سوف يكتشف السادة فى ذلك الوقت أن الغبار الذرى يمكن أن يذيب الثلوج القطبية، أو أن بناء سلسلة من الجبال فى شمال سيبيريا سيحول الرياح الشمالية الباردة. إن هذا البناء يمكن أن يتم مع التضحية بإيجاد بؤس إنسانى لا يمكن أن يظن أنه زائد عن الحد . وكلما أخفقت الوسائل الأخرى فى توجيه العمل الفائض نشبت الحرب ؛ وما دام الحكام يحسون بالراحة فما السبب الذى يدعوهم إلى تحسين أحوال قطيعهم ؟ .

وأنا أظن أن الشرور التى استشرت فى الاتحاد السوفيتى ستوجد فى درجة أكبر أو أقل كلما وجدت حكومة علمية وطيدة الأقدام لاتعتمد على التأييد الشعبى . ومن الممكن لأية حكومة فى أيامنا هذه أن تكون أشد جدا فى ظلمها من أية حكومة قبل أن يوجد المنهج العلمى . والدعاية تجعل الاستمالة أسهل مما كانت بالنسبة للحكومة. والملكية العامة لقاعات الكلام وللصحف تجعل الدعاية المضادة أكثر صعوبة ؛ كما أن كفاءة الأسلحة الحديثة تجعل الثورة الشعبية مستحيلة . ولن تستطيع ثورة أن تنجح فى بلد حديث إلا إذا ضمنت على الأقل جزءا كبيرا من القوات المسلحة . ولكن القوات المسلحة يمكن أن يحتفظ بولائها بمنحها مستوى من العيش أعلا من مستوى العامل المتوسط ، ويسهل بسبب هذا أن يُخَفَّضَ مستوى العامل العادى . وهكذا تساعد نفس الشرور التى فى هذا النظام على استقراره . ولا سبب هنالك لعدم بقاء مثل هذا النظام مدة طويلة ، إلا إذا وقع عليه ضغط من الخارج .

المجتمعات العلمية فى طفولتها حتى الآن . وربما كان من المجدى أن ننفق لحظات قليلة فى تأمل التطورات المستقبلة الممكنة للمجتمعات المحكومة حكما طائفيا .

من المتوقع أن التقدم فى وظائف الأعضاء وعلم النفس سيمنح الحكومات سيطرة أكبر على عقلية الفرد مما هى الآن ، حتى فى البلاد المحكومة حكما مطلقا . وقد قرر (فيخت) أن التربية يجب أن تتجه إلى تحطيم الإرادة الحرة ، حتى لا يستطيع التلاميذ بعد تركهم المدرسة أن يفكروا أو يعملوا طول حياتهم بطريقة مخالفة لما يود معلموهم منهم . ولكن فى أيامه كان ثمة مثل أعلى لم يوصل إليه ؛ وذلك ما كان هو يعتبره خير نظام فى الوجود أوجده كارل ماركس . أما فى المستقبل فمثل هذه المخالفات غير محتملة الحدوث حيث توجد دكتاتورية . فالأكلات الخاصة ، والحقن ، والأوامر ستجتمع كلها فى سن صغيرة لتنتج نوعا من الشخصية والمعتقدات ترضى عنه السلطات . وسيصبح كل نقد للقوى المتسلطة مستحيلا من الناحية النفسية ، وسيعتقد الجميع أنفسهم سعداء حتى لو كانوا جميعا بؤساء ، لأن الحكومة ستخبرهم أنهم كذلك .

إن الحكومة المطلقة ذات الميل العلمى ربما تفعل من الأشياء ما يبدو لنا مفزعا . لقد كان النازى أكثر اتصالا بالعلم من الحكام الحاضرين فى روسيا ، وكانوا أشد ميلا إلى هذا النوع الذى أفكر فيه . ولقد قيل ، ولا أعلم مبلغ هذا القول من الصحة ، إنهم كانوا يستخدمون السجناء فى معسكراتهم ليكونوا مادة لكل أنواع التجارب التى اقتضى بعضها الموت بعد ألم شديد . فلو أنهم بقوا فربما أخذوا بعد ذلك بالاستيلاد العلمى بأقصى سرعة . وإن كل أمة تتوخى هذا العمل سوف تضمن بعد جيل واحد أعظم الميزات العسكرية ؛ وربما يخمن المرء أن هذا النظام سوف يكون كما يأتى : سوف يجرى تعقيم الجميع ماعدا خمسة فى المائة من الذكور وثلاثين فى المائة من الأناث ، من غير الأرستوقراطية الحاكمة على احتمال ، وسيتوقع من الثلاثين فى المائة من الإناث أن تقضى السنوات بين الثامنة عشرة والأربعين فى الولادة ، لضمان إيجاد طعام للمدافع ، وسوف يكون التلقيح الصناعى كقاعدة عامة

مفضلا على الطريقة الطبيعية . وإذا أراد غير المعقمين ملذات الحب فعليهم ، أن يفعلوا ذلك مع شركاء جرى عليهم التعقيم .

وسيُختار الآباء لأسباب مختلفة . فيجرى اختيار بعضهم من أجل العضلات ، والبعض الآخر من أجل العقل ، ويجب أن تتوفر الصحة فى الجميع ، كما يجب أن يتوفر الخضوع ولين العريكة فيهم ، إلا إذا أريد لهم أن يكونوا آباء الحكام . وسيؤخذ الأطفال كما فى جمهورية أفلاطون من أمهاتهم لتربيهم مربيات محترفات ، وستزداد الخلافات التكوينية بالتدريج بين الحاكمين والمحكومين عن طريق التوالد الانتقائى selective breading ، حتى يصبحا كأنما ينتميان إلى نوعين مختلفين ، وسوف تستبعد الثورة الشعبية من التفكير ، كما يستبعد التمرد المنظم من قطيع الغنم ضد عادة أكل اللحم الضأن (لقد احتفظت قبيلة الأزتيك فى نيومكسيكو بقبيلة مستأنسة ، لأكل لحومها الإنسانية ؛ وقد كان حكمهم حكما مطلقا) .

أما بالنسبة لهؤلاء الذين تعودوا على هذا النظام فإن الأسرة كما نعرفها قد تبدو من الغرابة بدرجة ماتبدو لنا النظم القبليّة والطوطمية عند سكان استراليا الأصليين . وستجرى إعادة كتابة آراء فرويد ؛ وأنا أميل إلى الاعتقاد أن أدلر سيكون أقرب إلى القبول ، وسوف تفرض على الطبقة العاملة ساعات أطول فى العمل ، وكمية قليلة جداً للأكل ، حتى إن رغباتها سوف لاتتعدى الطعام والنوم . أما الطبقة العليا فلكونها محرومة من الملذات بسبب إلغاء نظام الأسرة ، والتفرغ الكامل لخدمة الدولة ، فإنها ستكتسب عقلية زهدية : فسوف لا يهتمون إلا بالسلطة ، وسوف لا يحجمون فى الجرى وراءها عن القسوة ، وسيصبح الناس مع استعمال القسوة فى منتهى الغلظة ، حتى إن النظارة سيحتاجون من أجل الشعور بهزة الانفعال thrill إلى أن يتزايد التعذيب سوءًا .

ووجود مثل هذه الإمكانيات بأية درجة كبيرة قديبدو كابوسا أسطوريا ، ولكنني اعتقد اعتقادا جازما أن النازى لو كسبوا الحرب الأخيرة ، ولو حصلوا على تفوق عالى فى النهاية ، لأنشئوا مثل هذا النظام على النحو الذى بينته قبل أن ينقضى وقت طويل ، ولكانوا قد استعملوا الروس والبولنديين كأدوات ، وعندما أصبحت إمبراطوريتهم مضمونة كانوا قد استعملوا الزنوج والصينيين . وكانت الأمم الغربية قد تحولت إلى متعاونين مع النازى بالطرق التى استخدمت فى فرنسا بين عامى ١٩٤٠ — ١٩٤٤ ، وإن دوام هذه الطرق ثلاثين عاما كان سيترك الغرب بالقليل من الميل إلى الثورة .

وإذا أردنا منع هذه المزعجات العلمية وجدنا الديموقراطية ضرورية ، ولكنها غير كافية . يجب كذلك أن يكون ثمة هذا النوع من احترام الفرد الذى أوحى بمبــدأ حقوق الإنسان . وهذا المبدأ باعتباره نظرية مطلقة لا يمكن قبوله . وكما قال بنثام « إن حقوق الإنسان كلام فارغ ، أما حقوق الإنسان التى لا يمكن تحديد معاييرها فهى كلام فارغ يمشى على أرجل خشبية عالية stilts » ، ويجب أن نعترف بأن ثمة مكاسب للمجتمع من الضخامة بحيث يصح من أجلها أن يقع الظلم على الفرد . وقد يحدث هذا إذا أخذنا مثالا واضحا ، كحين يطلب العدو المنتصر رهائن ثمنا لعدم تحطيم المدينة . ولا يمكن لوم سلطات المدينة (لا العدو طبعا) فى مثل هذه الظروف إذا سلمت العدد المطلوب من الرهائن . وحقوق الإنسان على وجه العموم يجب أن تخضع للاعتبارات العليا فى الصالح العام . وما دمنا قد اعترفنا بهذا فيجب أن نستمر فى الدعوى والدعوى المؤكدة أن هناك مضاراً لا يمكن أن يكون إيقاعها بالأفراد الأبرياء مما يتطلبه الصالح العام . والمبدأ هام لأن القابضين على زمام السلطة وعلى الأخص فى الحكم الطائفى سيميلون جدا فى كل مناسبة إلى الظن أن هذه هى إحدى الحالات التى يجب أن يتجاهل المبدأ فيها .

والحكم المطلق كذلك نظرية وعمل. فهو كعمل يعنى أن جماعة معينة قبضت بوسيلة أو بأخرى على جهاز السلطة، وعلى الأخص القوات المسلحة والشرطة، فبدأت فى الانتفاع بمزايا الموقف أقصى انتفاع ، بتنظيم كل شىء بالطريقة التى تمنحها السيطرة على الآخرين . ولكنه كنظرية يختلف عن ذلك . فهو المبدأ القائل إن الدولة أو الأمة أو المجتمع له صالح يختلف عن صوالح الأفراد ، ولا ينبغى من أى شىء يفكر الأفراد فيه أو يحسونه . وهذه هى النظرية التى دافع عنها هيجل على وجه الخصوص ؛ فمجّد الدولة ، ورأى أن المجتمع يجب أن يكون بقدر الإمكان عضويا ، ورأى أن الامتياز فى المجمع العضوى إنما يوجد فى المجموع . والفرد تكوين عضوى ؛ ونحن لا نرى أن لأجزائه المختلفة صوالح منعزلة ، فإذا أحس بالألم فى إصبع رجله الأكبر فإنه هو الذى يقاسيه لا الإصبع الأكبر من رجله خصوصا ، وهكذا ينتهى الخير والشر فى المجتمع العضوى إلى المجموع ، لا إلى الأجزاء . هذا هو الشكل النظرى للحكم المطلق .

والصعوبة التى تواجه هذه النظرية أنها تتوسع دون سند فى تشبيه التركيب العضوى الاجتماعى بالشخص المفرد باعتباره مركبا عضويا . والحكومة حين نفهمها فى مقابل أعضائها باعتبارهم أفراداً ليست ذات حس وهى لا تُسرّ بالنصر ، ولا تقاسى الهزيمة . وحين يضارّ التكوين العام لابد أن يقع الإحساس من أعضائه بأى ألم يمكن الإحساس به ، ولا يقع الإحساس من هذا التكوين فى عمومه . أما فى تكوين جسم الشخص المفرد فالأمر على العكس ؛ إذ يقع كل الإحساس بالألم فى المركز . فإذا أحست الأجزاء المختلفة من الجسم آلاما لا تحس بها الذات المركزية ، فربما اختلفت مصالحها وأحست الحاجة إلى برلمان يقرر ما إذا كان على أصابع الرجلين أن تتنازل لأصابع اليدين ، أو أن تتنازل أصابع اليدين لأصابع الرجلين . وبما أن الحال مختلفة عن ذلك يبقى الشخص المفرد وحدة خلقية . فلا أجزاء الشخص

الفرد ولا المنظمات المكونة من أشخاص كثيرين يمكن أن تستمتع بنفس الأهمية الخلقية ، إذ أن صالح الجماعة هو مجموع صوالح الأفراد الذين يكونونها ؛ لا صالح جديد منفصل . وللتعبير عن ذلك بالحقيقة الواقعة نقول إنه حين يُدَّعَى أن للدولة صالحا يختلف عن صالح المواطنين فالمقصود أن صالح الحكومة ، أو صالح الطبقة الحاكمة أهم من صالح بقية الشعب . ومثل هذا الاتجاه لايمكن أن يكون له أساس إلا القوة التحكمية .

وأهم من هذه التأملات الميتافزيقية مسألة ما إذا كانت الدكتاتورية العلمية كالتى عرضنا لها يمكن أن تكون ثابتة ، أو أن ثباتها أكثر فى الاحتمال من ثبات الديموقراطية .

ولست أرى سببا فيما عدا خطر الحرب يجعل هذا النظام غير ثابت . ومعظم البلاد المتمدينة ونصف المتمدينة المعروفة فى التاريخ كان لها فى النهاية طبقة كبرى من العبيد أو القطين serfs تعتمد تماما على ملاكها . ولا يوجد شىء فى الطبيعة الإنسانية يجعل بقاء هذا النظام مستحيلا . وإن تطور المنهج العلمى قد جعل بقاء الحكم الاستبدادى للأقلية أسهل بقاء مما كان . وحين تسيطر الحكومة على توزيع الطعام تصبح قوتها مطلقة مادامت تستطيع أن تعتمد على الشرطة والقوات المسلحة . ويمكن ضمان ولاء هذين بإعطائهما بعض الامتيازات التى للطبقة الحاكمة . ولست أرى كيف تستطيع أية حركة ثورية داخلية أن تحرر المظلومين تحت دكتاتورية علمية حديثة .

أما حين تكون المسألة مسألة حرب خارجية فالأمر مختلف . فإذا فرضنا أن ثمة بلدين متساويين فى الموارد الطبيعية يحكم أحدهما حكما دكتاتوريا ويسمح الآخر بحرية فردية ، فإن هذا الذى يسمح بالحرية الفردية سيصبح بالتأكيد أقوى من الأول فى المنهج الحربى فى وقت قصير . والحرية فى البحث العلمى لاتتفق مع الدكتاتورية ،

كما رأينا فى ألمانيا وروسيا . وربما كان فى استطاعة ألمانيا أن تكسب الحرب لو أن هتلر تحمل علماء الطبيعة من اليهود ، ولو أن ستالين لم يصر على اتباع نظريات ليسنكو Lysenko لكان لدى روسيا قمح أكثر . ومما يحتمل جدا أنه سوف يكون قريبا فى روسيا تدخل حكومى مشابه فى حقل الدراسات النووية . وأنا لا أشك فى أنه إذا لم تعم الحرب خلال الأعوام الخمسة عشرة الآتية فإن المنهج الحربى العلمى الروسى فى نهاية ذلك الوقت سوف يكون أحط بوضوح من منهج الغرب ، وسيرجع هذا الانحطاط إلى الدكتاتورية مباشرة . ومن ثم أرى أنه مادامت الديموقراطيات القوية موجودة فستنتصر الديموقراطية فى النهاية ، وعلى هذا الأساس أسمح لنفسى بتفاؤل غير مبالغ فيه بالنسبة إلى المستقبل . ستختفى الدكتاتوريات العلمية لكونها ليست علمية إلى درجة كافية .

وربما ذهبنا إلى أبعد من ذلك : إن الأسباب التى ستتأخر بالدكتاتورية فى العلم ستخلق نقط ضعف أخرى . إذ سوف ينظر إلى كل الأفكار الجديدة باعتبارها إلحاداً ؛ حتى إنه سيوجد نقص فى التكيف بحسب الظروف الجديدة ، وسوف تميل الطبقة النامية إلى أن تصبح كسولة عندما تحس بالطمأنينة .

أما إذا تم من جهة أخرى تشجيع المبادأة بالعمل فيمن يقرب من القمة من الشعب فسوف يكون ثمة خطر دائم من ثورات القصر . وإن أحد المتاعب فى الإمبراطورية الرومانية فى عهدها المتأخر أن أىّ قائد ناجح كان يستطيع مع بعض الحظ أن يجعل نفسه امبراطوراً ؛ حتى إن الامبراطور الحاكم كان دائماً يحس بدافع إلى إعدام القادة الناجحين . ومثل هذه المتاعب يمكن بسهولة أن تخلق دكتاتورية كما برهنت الحوادث دائماً .

ولهذه الأسباب المتعددة لا أعتقد أن الدكتاتورية شكل دائم من أشكال المجتمع العلمى ، إلا إذا أصبحت تشمل العالم كله (ولكن هذا شرط هام .)

الفصل الرابع

الديمقراطية والمنهج العلمى

إن كلمة الديموقراطية قد أصبحت يكتنفها الغموض . فمعناها فى شرق الألب « الدكتاتورية العسكرية من أقلية تفرضها بقوةبوليسية تحكمية » . أما فى غرب الألب فمعناها أقل فى محدوديته ، ولكنه بصورة عامة يقصد به «التوزيع بالتساوى للقوة السياسية النهائية ، بين البالغين غير المجانين أو المجرمين أو اللوردات » . وهذا تعريف غير دقيق بسبب استعمال كلمة « النهائية » . افرض أن الكومونولث البريطانى قد تغير من ناحية واحدة فحسب : هى أنه يجب أن تحدث الانتخابات العامة كل ثلاثين عامامرةواحدة ، بدلا من مرة واحدة كل خمس سنوات . إن ذلك لا بد أن يقلل من اعتماد البرلمان على الرأى العام ، ومن ثم لا يمكن للنظام الناتج عن هذا التغيير أن يسمى « ديموقراطية » . ويضيف كثيرون من الاشتراكيين إلى القوة السياسية القوة الاقتصادية باعتبارها تتطلب توزيعا بالتساوى تحت الحكم الديموقراطى . ولكننا ربما تجاهلناهذه المسائل الكلامية ، فجوهر الأمر هو فهم التساوى فى القوة ؛ وواضح أن الديموقراطية مسألة يتوقف فهمهاعلى درجة وجودها .

وحين يفكر الناس فى الديموقراطية يقرنونها بقسط عظيم من الحرية للأفراد والجماعات . فالاضطهادالدينى مثلا لا يتصور فيها ، ولو أنه لا يتنافى مع الديموقراطية التى عرّفناها من لحظة مضت . وأنا أميل إلى رأى أن كلمة الحرية كما كانت تقع فى الفهم فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لا تعطى الفكرة

الصحيحة عن الحرية . ويجب أن أفضل عليها « حرية المبادأة بالعمل » Opportunity of initiative ، والسبب الذى من أجله أقترح هذا التغيير هو خصائص المجتمع العلمى .

ولا يمكن إنكار أن الديموقراطية لم تعد تبعث نفس الحماسة التى تنبعث من روسو ورجال الثورة الفرنسية ، ويرجع هـذا بالطبع بصفة رئيسية إلى أن الديموقراطية قد تحققت . والمدافعون عن أية قضية يبالغون دائما فى التعبير عن قضيتهم ، حتى إن المتحولين إلى مذهبهم يتوقعون من الإصلاح أن يبقى ألف عام ؛ فحين يخفق الإصلاح فى تحقيق ذلك تخيب الآمال حتى لو كان ثمة مزايا مادية منه . ولقد ظن كثير من الناس فى فرنسا فى حكم لويس السادس عشر أن كل الشرور تأتى من الملوك والقساوسة ، ولذا قطعوا رأس الملك ، وحولوا القساوسة إلى هاربين مطاردين ؛ ولـكنهم حينئذ لم ينجحوا فى الحصول على بركات السماء ، ومن ثم قرروا أنه مع كون الملوك أشراراً لا ضرر هنالك من الأباطرة .

وهكذا كان الأمر مع الديموقراطية . فلقد رأى محاموها العقلاء وعلى الأخص بنثام ومدرسته أنها تقضى على بعض الشرور ، وقد ظهر صدق نظرتهم على وجه العموم . ولـكن المتحمسين لها وعلى الأخص أتباع روسو ظنوا أنها يمكن أن تحقق أكثر مما كان ثمة أسباب لتوقعه . ولقد نسيت حالات نجاحها الهادئة sober لأن الشرور التى شفت الناس منها لم تعد موجودة تسبب الغضب . ولهذا استمع الناس إلى سخرية كارليل وإلى القدح الهمجى من نيتشه فيها ووصفها بأنها أخلاق عبيد . وقد استبدلت عبادة البطل فى كثير من الأذهان بعبادة الرجل العادى . وليست عبادة البطل من الناحية العملية إلى الفاشيَّة .

إن عبادة البطل فوضوية رجعية retrograde لا تتمشى مع حاجات المجتمع العلمى . ولـكن ثمة ميلا مضادا تشتمل عليه الشيوعية ، وهو مع كونه ضد

الديموقراطية يتمشى مع التطورات الفنية للصناعة الحديثة ، ومن ثم كان أكثر استحقاقا للتأمل . ذلك هو الميل إلى ألاّ نعلق أهمية لا على الأبطال ولا على الرجال العاديين ، ولكن نعلقها على المنظمات . والفرد فى هذا الاتجاه لا شيء ، إذا انفصل عن هيئته الاجتماعية التى هو عضو فيها ؛ ويقال إن كل هيئة كهذه تمثل قوة اجتماعية معينة ، ولا يصير الفرد ذا أهمية إلا باعتباره جزءا من قوة كهذه .

عندنا إذاً وجهات نظر ثلاث تؤدى إلى فلسفات سياسية ثلاث مختلفة . فربما نظرت إلى الفرد باعتباره (١) رجلا عاديا أو (٢) بطلا أو (٣) ترسا فى آلة . ويفضى بك الاتجاه الأول إلى الديموقراطية بمفهومها القديم ، والثانى إلى الفاشية ، والثالث إلى الشيوعية . وأنا أرى أن الديموقراطية إذا قدر لها أن تستعيد قدرتها على الإيحاء بالعمل القوى فيجب أن تحسب حساب ما يُعْمَلُ به فى الاتجاهين الآخرين من حيث النظرة إلى الأفراد .

وكل واحد يمثل هذه الوجهات الثلاث فى المواقف المختلفة . وإنك حتى إن كنت أعظم الشعراء الأحياء لَرَجُــل عادى بالنظر إلى بطاقة تموينك ، وحين تذهب إلى صندوق الانتخاب لتدلى بصوتك . ومهما كانت حياتك اليومية غير مثيرة فإن ثمة احتمال لأن تسنح لك الفرصة من وقت إلى آخر لتتصرف ببطولة ؛ فربما أنقذت إنسانا من الغرق ، وأكثر احتمالا أنك ربما مت بشرف فى المعركة . وأنت ترس فى الآلة إذا عملت فى جماعة منظمة كالجيش ، أو صناعة التعدين مثلا والذى صنعه العلم أنه زاد من القسط الذى تصبح فيه ترسا فى حياتك إلى حدّ يهدد أعمالك البطولية أو أعمالك العادية . وعمل الدافع المحدث عن الديموقراطية هو خلق فلسفة سياسية تتوقى هذا التهديد .

وسيكون كل إنسان فى ظل النظام الاجتماعى الصالح بطلا ورجلا عاديا وترسا فى نفس الوقت إلى أقصى حد ممكن ، مع أنه إذا كان أى واحد من هذه الثلاثة

إلى درجة تزيد على الحد فربما نقص دور الآخران . والمرء باعتباره بطلا يجب أن تكون له فرصة المبادأة intiative ، وباعتباره رجلا عاديا يجب أن يحصل على الأمن ، وباعتباره ترسا يجب أن يكون نافعا . ولا تستطيع أمة أن ترقى إلى مدارج الكمال بأى واحد من هؤلاء منفرداً . ولقد كان الناس جميعا أبطالا فى بولندا قبل التقسيم (أو كلهم نبلاء على الأقل) ، والغرب الأوسط موطن الرجل العادى ، وكل رجل خارج المكتب السياسى politburo فى روسيا ترس فى آلة . وليس أى واحد من هؤلاء الثلاثة كافيا بنفسه .

ومع أن نظرية الترس مقبولة من الناحية الميكانيكية فهى أكثر الثلاثة تدميرا من الناحية الإنسانية . قلنا إن الترس يجب أن يكون نافعا . نعم ! ولكن نافع من أجل ماذا ؟ إنك لا تستطيع أن تقول : نافع فى الترويج للمبادأة ؛ لأن عقلية الترس مضادة لعقلية البطل . فإذا قلت : نافع من أجل سعادة الرجل العادى فقد أخضعت الآلة لآثارها فى الإحساسات الإنسانية ، ومعنى هذا أن تهمل نظرية الترس . ولا تستطيع أن تبرر نظرية الترس إلا بعبارة الآلة . فيجب أن تجعل الآلة غرضا فى نفسها لا وسيلة إلى ما تنتجه . ويصبح الناس حينئذ كعبيد المصباح السحرى الذى فى ألف ليلة وليلة . ولم يعد ما تنتجه الآلة هاما ، ولو أن القنابل بوجه عام ستكون مفضلة على الطعام ، لأنها تتطلب فى إنتاجها تكوينا ميكانيكيا أكبر تعقيداً . وسيصلى الناس للآلة فى الوقت المناسب قائلين : « أيتها الآلة القادرة على كل شىء ، الرحيمة أكثر من كل شىء ! لقد أخطأنا ، وانحرفنا عن الجادة كالمسامير المحوّاة الضائعة . وقد أدخلنا هذه الصواميل التى ما كان ينبغى لنا أن ندخلها ، وقد تركنا تلك الصواميل التى كان ينبغى علينا أن ندخلها . وليس فينا شىء من صفات التروس » — وهلم جرا .

وليس ذلك فى الحقيقة نافعا . إن تأليه الآلة فظاعة ؛ فالآلة باعتبارها موضوعا للعشق شكل جديد من أشكال الشيطان ، وعبادتها شيطانية حديثة .

وليس معنى ذلك أننى أريد إبطال الآلات ، كما أراد أصحاب المدن الفاضلة Erewhonians[1] ، فلقد عبد المصريون الثيران ، وذلك ما نعتبره خطأ ، ولكننا لا نبطل الثيران لهذا السبب ، ولا أعارض فى وضع الآلة إلا حين تحتل مكان الله . وإذا أصبح كل شىء آليا فلن تصبح القيم كذلك ؛ وهذا ما لا يجب أن ينساه فيلسوف سياسى .

ولكن حان الوقت لأن نترك هذه الخيالات اللذيذة ونعود إلى موضوع الديموقراطية .

والنقطة الرئيسية أن المنهج العلمى يجعله المجتمع تركيبا عضويا يزيد فى المدى الذى يصبح الفرد فيه ترسا فى آلة ، فإذا لم يكن ذلك شرا فيجب أن توجد طرق تمنع المرء من أن يصبح مجرد ترس . وهذه الوسيلة من وسائل المبادأة يجب أن تظل محفوظة بالرغم من التنظيم ، ولكن معظم المبادأة سيكون من النوع الذى يمكن أن يسمى « سياسيا » بأحد المعانى العامة . أى أنه سيتكون من النصح الموجه إلى ما يجب أن يفعله تنظيم معين . فإذا أريد لهذا النوع من المبادأة أن تكون له فرصة للبقاء فيجب أن تحكم التنظيمات حكما ديموقراطيا بقدر الإمكان . ليس ذلك فحسب ؛ بل إن المبدأ الفيدرالى يجب أن يطبق إلى حدّ أن يستطيع كل شخص نشط أن يؤثر فى حكومة بعض الهيئات الاجتماعية التى هو عضو فيها .

---

(١) ممن كتبوا فى المدن الفاضلة صمويل بتلر وقد سمى مدينته الفاضلة Erewhon وهذا الاسم فى هجائه مقلوب كلمة nowhere المترجم

والديموقراطية فى الوقت الحاضر تقضى على هدفها باتساع ماتشتمل عليه من هيئات تتركب منها . إفرض أنك أمريكى له اهتمام بانتخاب رئيس الجمهورية . فإذا كنت عضوا فى مجلس الشيوخ أو نائبا استطعت أن تؤثر أثرا كبيرا فى الانتخاب ، ولكن احتمال كونك أحد هذين هو واحد إلى مائة ألف . فإذا كنت مندوب حزب فى منطقة إدارية ward politician استطعت أن تفعل شيئا . أما إذا كنت مواطنا عاديا فلا تستطيع إلا أن تعطى صوتك . ولست أظن أن قد وجد انتخاب لرياسة الجمهورية تغيرت فيه النتيجة بامتناع فرد عن التصويت . وهكذا تحس أنك سليب القوة كما لو كنت تحيا فى ظل نظام دكتاتورى . وأنت إذاً ترتكب المغالطة الكلاسيكية بالطبع ، مغالطة الكومة[1]؛ ولكن عقول معظم الناس تعمل بهذه الطريقة .

أما فى انجلترا فالمسألة ليست سيئة بهذه الدرجة ؛ لأنه ليس ثمة انتخاب تقع فيه الأمة جميعا فى دائرة انتخابية واحدة ، لقد ساعدت مرشحا فى عام ١٩٤٥ حصل على أغلبية ستة وأربعين صوتا ، فلو كان عملى قد جلب إليه أربعة وعشرين شخصا فقد كانت النتيجة ستختلف عنها لو بقيت دون أن أساعده ، ولو أن حزب العمال قد حصل على أقل من عدد مقاعده بواحد فى البرلمان فربما ظننت نفسى هاما جدا ، ولكن الذى حصل أننى اضطررت إلى أن أقنع بالسرور لكونى فى الجانب الرابح .

إن الأمور كانت ستختلف عن ذلك لو أن الناس اهتموا بالسياسة المحلية ، ولكن القلة هى التى تفعل ذلك لسوء الحظ . وليس ذلك غريبا لأن معظم المسائل الهامة تحمل على مستوى قومى لا محلى : ومما يؤسف له أن ثمة قليلا

---

(١) المقصود بهذه المغالطة أنك إذا ألقيت عددا من الأشياء واحدا فوق الآخر فإنك لا تعرف الحد الذى تستطيع عنده أن تصف مجموع هذه الأشياء بأنها كومة (راجع الجزء الخامس من قاموس أكسفورد الكبير . عند مادة heab) المترجم

من الاعتزاز بالحياة المدنية فى هذه الأيام . فنى القرون الوسطى أرادت كل مدينة أن تكون أشهر المدن بفخامة كاتدرائيتها ، ولا نزال نستمتع بنتيجة ذلك . أما فى أيامنا هذه فإن ستكهولم تحس نفس الإحساس بقاعة البلدية **Town Hall** التى تبدو فى منتهى البهاء ، ولكن المدن الانجليزية الكبرى لا يبدو أنها تحس هذا الاحساس .

وثمة مجال فى الصناعة لكثير من التحول . وقد دافع حزب العمال سنوات طويلة عن تأميم السكة الحديدية ، وأيد معظم عمال السكة الحديدية حزب العمال فى هذا الدفاع . ولكن الكثير منهم الآن يجدون أن الدولة على أى حال لا تختلف كثيرا عن الشركة الخاصة ؛ فهى مثلها فى البعد عن العمال . وفى عهد حكومة المحافظين سوف يكون محتملا كذلك أن تسوء العلاقة بين الحكومة وبين اتحادات العمال . والتأميم فى الحقيقة بحاجة إلى أن تردفه إجراءات تحد من الحكم الذاتى فى السكة الحديديه ، والموظفون هم الذين ينتخبون حكومة السكة الحديدية .

ويجب أن يكون المبدأ العام فى كل نظام فيدرالى أن تنقسم شئون كل هيئة فرعية إلى شئون داخلية وشئون خارجية . وتشرف الهيئات الفرعية على شئونها الداخلية ، وتشرف الهيئة الفيدرالية على الشئون التى تعتبر خارجية بالنسبة للهيئات الفرعية ، لا لها . وهى بدورها يجب أن تكون وحدة من اتحاد فيدرالى أكبر ، وهكذا ، حتى نصل إلى حكومة عالمية لن يكون لها شئون خارجية فى الوقت الحاضر ، وليس من السهل دائما بالطبع أن نقرر ما إذا كانت الشئون داخلية صرفا أولا ، ولكن ذلك سيكون من مسائل المحاكم القانونية ، كما فى أمريكا واستراليا .

ويجب أن تطبق هذه القاعدة لا جغرافيا فحسب ، بل مهنيا كذلك . فنى الأيام الماضية ، حين كان السفر بطيئا ، والطرق وعرة فى الغالب ، كان الموقع الجغرافى

أهم مما هو الآن . أما الآن ، وعلى الأخص فى بلد صغير كبلدنا ، فلا توجد صعوبة تحول دون منح بعض وظائف الحكومة لهيئات مثل النقابات التى ينقسم الناس فيها بحسب المهن ، لا بحسب المواطن . والشئون الخارجية لأية صناعة هى إمكان الحصول على المواد النفل ، وكمية الإنتاج ، وثمنه . ولا يجب أن تسيطر الصناعة على هذه الأشياء ، ولكن يجب أن تقرر بنفسها كل شىء آخر .

وسيكون ثمة قدر من الفرص فى مثل هذا النظام للمبادأة الفردية أكثر مما هو الآن ، مع أن التحكم المركزى سيظل كلما كان ذلك جوهريا . وسيكون من الصعب بالطبع أن يسرى هذا التنظيم وقت الحرب . وما دام هناك خطر حرب فمن المستحيل أن نهرب من سيطرة الدولة ، إلا إلى حد محدود . إن الحرب هى العامل الرئيسى الذى تسبب فى زيادة قوة الدول الحديثة ، ومن المحتم إلى أن يزول خطر الحرب أن يخضع كل إنسان نفسه لنفوذ مؤقت ؛ ولكننى أظن من المجدى أن نفكر الآن فى العالم كما يمكن أن يكون حين تقضى الحكومة العالمية على هذا الكابوس المفزع المسمى الحرب .

وثمة بالإضافة إلى نوع الفيدرالية الذى كنت أتكلم عنه طريقة يمكن أن تكون نافعة من أجل أهداف خاصة ، وهى تختلف نوعا ما . تلك هى طريقة الهيئات التى بالرغم من كونها جزءا حقيقيا من الدولة تتمتع بقسط عظيم من الاستقلال . من ذلك مثلا الجامعات ، والجمعية الملكية ، وهيئة الإذاعة البريطانية ، وسلطة ميناء لندن . ويتوقف سير العمل فى مثل هذه الهيئات على درجة معينة من التوافق فى المجتمع . فالجمعية الملكية ، وهيئة الإذاعة البريطانية حدث أنهما تشتملان على أغلبية شيوعية ، لا شك أن البرلمان يحد من حريتها . ولكن الهيئتين فى نفس الوقت تستمتعان بقسط كبير من الاستقلال المرغوب فيه جدا . أما جامعاتنا وهى أقدم عهدا فهى ، لكونها يجرى تصريف أمورها على أيدى رجال يحترمون العلم ، أكثر تحررا تجاه الشيوعيين

الممتازين من الناحية الأكاديمية من جامعات أمريكا التي لا صوت لعلمائها في الحكومة ، وأنا سعيد بهذه الموازنة .

والفن والأدب فيهما شيء من الغرابة في العالم الحديث ، من حيث إن هؤلاء الذين ينتجونهما يحتفظون بالحرية الفردية التي كانت في القديم ، ولا يكادان يتأثران بالمنهج العلمي إلا حين تجذبهما السينما إليها . وهذا صحيح بالنسبة للمؤلفين أكثر منه بالنسبة للفنانين ، لأنه كلما تضاءلت الثروات الخاصة أصبح الفنان أكثر اعتمادا على حماية الهيئات العامة . ولكن إذا كان الفنان على استعداد لأن يجوع فلن يستطيع شيء أن يمنعه من أن يفعل أقصى ما يمكنه ، وموقف الفنانين والمؤلفين على أي حال موقف حرج . فهم في روسيا مجرد متملقين مصرح لهم بالملق . أما في الأمكنة الأخرى ، حيث يجند الناس للعمل ، فسوف لا يمضي زمن طويل قبل أن يُمنَع الإنسان من تعاطي الأدب أو الطباعة ، ما لم يستطع أن يقدم اثني عشر قاضيا أو رجل دين يشهدون بأنه كفء . ولست أجزم بأن الذوق الجمالي لهؤلاء الأفاضل سيظل دائما معصوما من الخطأ .

والحرية بمعناها القديم أكثر أهمية بالنسبة للسلع العقلية منها للسلع المادية ؛ والسبب بسيط ؛ وهو بالنسبة للسلع العقلية أن ما يملكه شخص معين ليس مأخوذا من أشخاص آخرين ، على حين يختلف الأمر بالنسبة للسلع المادية . وحين يوزع إمداد محدود من الطعام مثلا تصبح القاعدة البدهية هي العدالة . وهي لا يقصد بها التساوي المضبوط ؛ لأن الذي يحفر الأرض بحاجة إلى طعام أكثر مما يتطلبه المسن الملازم الفراش . ويجب أن تكون القاعدة كما عبر عنها الشعار القديم « لكل بقدر حاجته » . وثمة صعوبة يؤكدها خصوم الاشتراكية على أي حال ؛ تلك هي الدافع الشخصي . فالدافع في النظام الرأسمالي هو الخوف من الجوع ؛

أما في النظام الشيوعي فهو الخوف من العقاب البوليسي الشديد . وليس أيٌّ من هذين هو ما يُريده الديموقراطيون الاشتراكيون . ولكنني لست أظن أن الصناعة يمكن أن تعمل بنجاح عن طريق دافع الروح القومية المجردة . ومن الضروري في الأوقات العادية أن يكون ثمة شيء أكثر اتصالا بالشخص ، واعتقادي الخاص أن دافع الربح الجماعي يمكن أن يكون ويجب أن يكون متحدا مع الاشتراكية . خذ تعدين الفحم مثلا : يجب على الدولة أن تقرر في مبدأ كل عام ما الأسعار التي هي مستعدة لأن تدفعها للفحم بأنواعه المختلفة . ويجب أن تترك طرق التعدين لهيئات استخدام المناجم ، وسوف يكون من نتيجة كل تحسين فني كثرة الفحم أو قلة العمل ، وسيبقى دافع الربح في صورة جديدة ، ولكنه سيخلو من من الشرور القديمة . وبالتحويل يمكن أن يُجعَلَ الدافع صالحا للعمل في كل منجم .

أما من جهة السلع العقلية فلا أهمية للعدالة ولا للدافع ، والمهم إنما هو الفرصة ؛ وتشمل الفرصة بالطبع البقاء على قيد الحياة ، وهي إلى هذا الحد تتصل بالسلع المادية . ولكن معظم الناس من ذوي القوة المبدعة الهائلة لا يسعون وراء الغنى ، حتى إنهم ليكفيهم النزر اليسير . وإذا قضى بإعدام هؤلاء كما أُعدم سقراط بعد أن يكون عملهم قد تم فلن يضارّ إنسان بذلك . ولكن الضرر يكون عظيما إذا تعثر عملهم في حياتهم على يد السلطات ؛ حتى لو كان هذا التعثر ناشئا عن المبالغة في تكريمهم ثمنا لتمشيهم مع الاتجاهات الرسمية . ولا يمكن لمجتمع أن يكون تقدميا دون أن يكون فيه خميرة للثوّار . وإن المنهج الحديث يجعل صيرورة المرء ثائرا متزايدة الصعوبة .

إن صعوبات هذه المشكلة ضخمة جدا . فمن جهة العلم لا أعتقد أنه يمكن أن يكون هناك حل كامل . وأنت لا تستطيع أن تبحث في الطبيعة النووية

فى أمريكا إلا إذا كنت متمسكا بالمبادىء السياسية الرسمية ، ولا تستطيع فى روسيا أن تشتغل بأى علم مالم تكن متمسكا بالمبادىء الرسمية لا فى السياسية فحسب ، بل فى العلم أيضا . ومعنى التمسك بالمبادىء الرسمية فى العلم أن تقبل كل نزعات ستالين غير المثقفة . وتنجم الصعوبة من النفقات الباهظة للأجهزة العلمية . وثمة اليوم أو كان فى الماضى قانون يقضى بأن الإنسان إذا استخدمه دائنه فيجب ألا يحرم من أدوات مهنته ؛ ولكن إذا كانت أدوات مهنته تكلف الملايين الكثيرة من الجنيهات فالموقف شديدا لاختلاف عنه بالنسبة للصانع اليدوى فى القرن الثامن عشر .

ولست أظن أية حكومة فى هذه الحالة الراهنة للعالم يمكن أن تلام لأنها تطلب التمسك بالمبدأ الرسمى السياسى فى دراسة علم الطبيعة النووية . ولو أن جاى فوكس كان قد طلب باروداً لكون البارود واحدة من الأدوات التى تستخدم فى حرفته فربما نظرت حكومة جيمس الأول إلى مطلبه نظرة أميل إلى البرود ؛ وهذا ينطبق انطباقا أشد على علماء الطبيعة النووية فى وقتنا الحاضر ؛ إذ يجب أن تطلب الحكومات بعض الضمانات ، وتعلم شيئا عند هؤلاء الذين سينسفونها . ولكن ليس ثمة مبرر لطلب الولاء العلمى . ولحسن الحظ فى العلم أنه من السهل أن تقدر مقدرة المرء . ومن ثم أصبح من الممكن أن نعمل طبقا للقاعدة القائلة : إن العالم يجب أن يعطى الفرصة المناسبة لقدرته ، لا لتمسكه بالمبادىء العلمية . وأعتقد بصفة عامة أن هذه القاعدة مراعاة إلى درجة معقولة فى أوربا الغربية ، ولكن مراعاتها غير دائمة ؛ وربما توقفت بسهولة فى أوقات الجدل العلمى الحاد .

والمشكلة تختلف عن ذلك فى الفن والأدب . فالحرية هنا أكثر احتمالا من جهة ، لأن السلطات لا يطلب منها أن تهيىء الأجهزة العلمية الغالية الثمن ، ولكن التفوق

من جهة أخرى يصعب تقديره . والجيل القديم من الفنانين والكتاب يخطىء دائما فى فهم الجيل الجديد ، كما يتهم الملهمون دائما فن المحدثين ولكن هؤلاء يقضى لهم بعد ذلك بأنهم ممتازون . ولهذا كانت الهيئات التى تشبه الأكاديمية الفرنسية ، والأكاديمية الملكية عديمة الفائدة إن لم تكن ضارة . وليس ثمة من طريقة مفهومة يمكن للمجتمع بها أن يعترف بالفنان إلا إذا كبر وتم أكثر عمله . ولا يستطيع المجتمع إلا أن يعطى الفرصة ويتسامح فحسب . ولا يكاد المرء أن يتوقع من المجتمع أن يرخص لكل إنسان يريد أن يرسم ، وأن يمد له يد المساعدة من أجل لطخاته على اللوحة مهما كانت مفزعة . وأظن أن الحل الوحيد هو أن يعول الفنان نفسه بعمل غير فنه ، إلى أن يعترف له بالتفوق . وعليه أن يطلب الأعمال التى تستغرق نصف وقت العمل ولا يكافأ عليها بسخاء ، وأن يعيش متقشفا ، ويقوم بعمله الفنى فى وقت فراغه . وأحيانا يمكن حل المسألة حلولا أقل إجهاداً ؛ إذ يمكن أن يصبح كاتب القصة ممثلا ، ويصبح مؤلف الموسيقى عازفا . ولكن الفنان والكاتب على أى حال يجب عليه فى صغره أن يخرج عمله الفنى من وسائله الاقتصادية ، ويكسب قوته من عمل واضح القيمة فى نظر السلطات . لأن عمله الفنى إذا جاءه رسميا بما يقيم أَوَدَهُ فسوف يأتيه التعطيل والتوقف من الرقابة الجاهلة من جهة السلطات . وأكبر ما نأمله — وهذا كثير — أن الذى ينتج عملا حسنا لا يعاقب عليه .

ولقد كان تكوين المدن الفاضلة موضع احتكار فى الماضى ، باعتباره مهربا غبيا لهؤلاء الذين لم يستطيعوا أن يجابهوا العالم الحقيقى . ولكن التغير الاجتماعى فى وقتنا الحاضر أصبح سريعا ، وإلى حد كبير وحيا من إيحاءات أمانى المدن الفاضلة ؛ حتى إنه أمسى من الضرورى أكثر مما كان أن نتأمل الحكمة أو الطيش فى الأمانى الرئيسية . ومع أن ماركس قد سخر من التفكير فى المدن الفاضلة كان بنفسه

أحد المفكرين فيها ؛ وهكذا كان حواريه لينين . وامتاز لينين امتيازا فريدا بأنه كوّن مدينته الفاضلة فعلا فى صورة دولة عظيمة قوية ؛ فكان ذلك أقرب مسلك معروف فى التاريخ للملك الفيلسوف الذى قال به أفلاطون . أما كون النتيجة غير مرضية فهو على ما أظن يرجع بصفة رئيسية إلى الأخطاء العقلية عند ماركس ولينين . وهى أخطاء تظل عقلية بالرغم من أن لها منابع عاطفية فى الصبغة الدكتاتورية للرجلين . والديموقراطيون الغربيون متهمون دائما ، حتى من أصدقائهم ، بأنهم ليس لهم مذهب ملهم متماسك يخفف من غلواء الشيوعية . وأظن أن هذا التحدى يمكن أن يجابه ، وسأكرر فى صورة أقل جدلا لهذا السبب فكرة المجتمع الصالح الذى أعتقد أن الاشتراكية الديموقراطية يجب أن تحذو حذوه .

يجب أن يكون الرجل فى المجتمع الصالح (١) نافعا ، و (٢) آمنا بقدر الإمكان من النوازل التى لا يستحقها ، و (٣) متمكنا من فرصة الإبداع initiative فى كل الطرق التى لا تضر بالآخرين ضررا إيجابيا . ولا يؤخذ أى واحد من هذه الثلاثة على إطلاقه . فالمجنون لا يمكن أن يكون نافعا ، ولكنه لا يجب أن يعاقب لهذا السبب ، والنوازل غير المستحقة لا يمكن تجنبها خلال الحرب . وفى أيام الكوارث العامة ربما اضطر حتى أكبر الفنانين إلى التخلى عن عمله ليطفىء الحريق ، أو يوقف الطوفان ، أو يقاوم الوباء . فشروطنا الثلاثة توجيهات عامة ، لا ضرورات مطلقة .

١ — حين أقول إن المرء يجب أن يكون نافعا يتجه تفكيرى إليه بالنسبة لمجتمعه ، وأنا أقبل حكم المجتمع على ما إذا كان المرء نافعا . وإذا كان شخص ما شاعرا عظيما ، أو ممن يعتقدون فى عودة المسيح ، ويراعون عطلة الأسبوع ، فربما ظن شخصيا أن أكثر ما يستطيع عمله نفعا هو أن يكتب أبيات شعر ، أو يعظ الناس بوجوب مراعاة الراحة فى يوم السبت . أما إذا كان المجتمع لا يوافقه على ذلك ، فعليه أن يجد

طريقة أخرى لكسب قوته يعترف المجتمع عامة بنفعها ، ويحتفظ بساعات راحته ليقوم بنشاطه الشعرى أو الوعظى .

٢ — أما الأمن ضد النوازل فقد كان أحد الأهداف الرئيسية للتشريعات الاجتماعية البريطانية ، منذ الأيام العظيمة ، أيام لويد جورج . والتعطل ، والمرض ، والشيخوخة لا تستحق العقوبة ، ولا ينبغى أن يسمح لها أن تتسبب فى متاعب يمكن تجنبها . ومن حق المجتمع أن يحصل على عمل من القادرين على العمل ، وعليه أن يعول كل من يرغب فى العمل ، سواء أكانوا فى الحقيقة قادرين على العمل أم لم يكونوا . وللأمن كذلك جهات قانونية : فلا ينبغى أن يقع المرء فى حبس احتياطى ، أو مصادرة لأمواله دون إذن قضائى تشريعى .

٣ — وفرصة الإبداع أمر صعب ، ولكنه ليس أقل أهمية . فالنفع والأمن أساس القضية النظرية للاشتراكية ، ولكن المجتمع الاشتراكى قد لا يكون له امتياز دون توافر فرصة الإبداع . اقرأ جمهورية أفلاطون ، والمدينة الفاضلة لمور More ، وكلاهما عمل اشتراكى ، ثم تصور نفسك تعيش فى مجتمع مما صوره أيهما ؛ فسوف ترى أن الملل قد يدفعك إلى الانتحار ، أو الثورة . وقد يظن الرجل الذى لم يستمتع بالأمن أبدا أن هذا المجتمع يرضيه ، ولكن إذا كان لنا أن نشبه هذا بتسلق الجبال ، فلن يكون فى الحقيقة إلا مخيما يتخذ قاعدة تبدأ منها التسلقات الخطرة . والحافز إلى الخطر والمغامرة عميق الجذور فى الطبيعة الإنسانية ، ولا يستطيع مجتمع يتجاهل هذا الحافز أن يظل مستقرا لمدة طويلة .

والمجتمع العلمى الديموقراطى إذ يتطلب الخدمات ، ويمنح الأمن ، يحرّم أو يمنع الكثير من الإبداع الشخصى الذى هو ممكن فى عالم تنظمه القوانين بدرجة أقل . فمنذ ثمانين عاما ادعى كل من فاندر بلت **Vanderbilt** ، وجى جولد **Jay Gould**

ملكية سكة حديد إرى Erie ، وكان لكل منهما صحافة مطبوعة تبرهن على عدد السندات التي امتلكها ، وطائفة من القضاة الفاسدين على استعداد لإعطاء أى قرار قضائي يطلب منهم ؛ وقد استحوذ كل منهما على قسم من العربات . وفى تاريخ محدد سير أحدهما قطارا من إحدى نهايتى الخط ، وسير الآخر قطارا من الطرف الثانى ، وتقابل القطاران فى الوسط ، وكان كل منهما محملا بالقتلة المرتزقة ، واشتبك الفريقان فى معركة دامت ست ساعات . وواضح أن فاندربلت وجى جولد قد أحسا نهاية المتعة ، وكذلك فعل القتلة ، وكذلك فعلت الأمة الأمريكية كلها ، إلا هؤلاء الذين أرادوا استعمال خط إرى الحديدى ، وهكذا فعلت حين قرأت عن هذه القصة . ومع ذلك نظر الناس إلى هذه القصة باعتبارها فضيحة . أما فى أيامنا هذه فإن الحافز إلى مثل هذا النوع من المتعة لا بد له أن يتطلب تحقيق نفسه فى صنع القنابل الهيدروجينية التى هى فى نفس الوقت أكبر ضررا وأقل إرضاء من الناحية العاطفية . وإذا قدر للعالم أن يعيش فى سلام ، فلا بد له أن يجد الطرق للجمع بين السلام وبين إمكان المخاطرة غير المدمرة .

والحل هو خلق الفرص للمباريات التى لا تؤدى بوسائل عنيفة . وهذا امتياز مما تمتاز به الديموقراطية . وإذا كنت ممن يكرهون الاشتراكية أو الرأسمالية فسوف لا تنحط إلى اغتيال مستر آتلى أو مستر تشرشل ، لأنك تستطيع أن تلقى أحاديث انتخابية ، أو إذا لم يرضك هذا تستطيع أن تنجح فتصبح عضوا فى البرلمان . وما دامت حريات الأحرار القديمة موجودة فأنت تستطيع أن تشتغل بالدعاية من أجل أى شىء يثير انفعالك . وتكفى هذه الأنواع من النشاط لإرضاء غرائز التنافس عند معظم الناس . والحوافز الإبداعية التى ليست عرضة لأن تُجابَه not combative ، كحوافز الفنان والكاتب ، لا يمكن أن ترضى بهذه الطريقة ، والحل الوحيد بالنسبة لها فى الدولة الاشتراكية هو الحرية فى استخدام

وقت الفراغ فى أى نشاط تحب . هذا هو الحل الوحيد؛ لأن هذه الأنواع من النشاط تكون أحيانا فى منتهى القيمة . ولكن المجتمع لا يتمكن فى أية حالة خاصة من تقدير ما إذا كان عمل الفنان أو الكاتب تافها ، أو أنه تبدو فيه عبقرية خالدة . ولهذا يجب أن تنظم هذه الأنواع من النشاط وتضبط . وإن جزءا من الحياة ، لعله أهم جزء فيها ، يجب أن يترك للعمل المرتجل الذى يخلقه الحافز الفردى ، لأن النظام حين يشمل كل شىء يخيم الموت العقلى والروحى على كل شىء .

الفصل الخامس

العلم والحرب

إن العلاقة بين العلم والحرب قد ازدادت توثقا . فقد بدأت منذ عهد أرشميدس الذي ساعد ابن عمه جبار سيراقوز Cyracuse على أن يدافع عن هذه المدينة ضد الرومان عام ٢١٢ قبل الميلاد . وفى «حياة مارسيلوس» لبلوتارخ مقالة رومانتيكية ، يتضح كثيرا أنها خرافية ، عن آلات الحرب التى اخترعها أرشميديس . وأنا أقتبس من نورث :

(قبل أن تبدأ الحرب)

« رجاه الملك أن يصنع له بعض عُدد الهجوم والدفاع الصالحة لكل أحوال الحصار والهجوم . وقد صنع أرشميديس له آلات كثيرة ، ولكن الملك هيرون لم يستخدم أية واحدة منها ، لأنه حكم فى عهد معظمه سلام بلا حرب . ولكن ما كان عنده من آلات ، وما أدخل على هذه الآلات من تعديل ، قد أدّيا خدمة جليلة لأهل سيراقوز فى ذلك الوقت (حين وقعوا فى حصار) . وحين بدأ أرشميديس يستخدم هذه الآلات ، ويطلق سراحها ، طارت أنواع من القذائف لا حصر لها فى الهواء ، وأحجار ضخمة عجيبة لها أصوات وقوة عظيمة فجائية لا تصدّق » وسقطت على المشاة الذين جاءوا يهاجمون المدينة من البر ، فانحدرت بكل شىء أو مكان سقطت عليه فحطمته تحطيما . ولم يستطع أى جرم أرضى أن يقاوم عنف هذا الوزن الثقيل ، ولذا وقعت الفوضى فى صفوفهم إلى درجة عجيبة . أما السفن

التى هاجمت المدينة من البحر فقد غرق بعضها بما أسقط عليه من الأسوار من قطع طويلة من الخشب ألقتها الآلات بقوة مفاجأة ، فكان ثقلها عاملا على إغراق السفن ، وعلق البعض الآخر فى الهواء من حيازيمه بأيد حديدية وخطاطيف صنعت على مثال طائر الرهو ، ثم سقط على قمته فى البحر . وأرتفع بعضها الثالث بواسطة آلات خاصة ، وربطت كل سفينة منه إلى الأخرى ، وجعلت تدور فى الهواء كالخذروف ، ثم قذف بها على الصخور بجانب السور ، فتحطمت إلى قطع ، فقتل وضاع كل من فيها . كما رفعت السفن والمراكب فى بعض الأحيان فوق الماء ، حتى لقد كان من المخيف أن تراها هكذا معلقة تدور فى الهواء ، حتى تقذف برجالها من فوق جوانبها هنا وهناك لقوة دورانها ، حتى إذا ما أصبحت خالية تحطمت على الأسوار ، أو سقطت فى البحر مرة أخرى وقد تركتها الآلات . »

وبالرغم من هذا النهج العلمى انتصر الرومان ، وقتل أرشميديس على يد جندى بسيط من جنود المشاة . ويستطيع المرء أن يتصور الزهو بالقوارب الرومانية ، بدليل أن اختراعات العلماء ذوى الشعور المرسلة قد انهزمت أمام القوى التقليدية المجربة التى بنيت عظمة الأمبراطورية بواسطتها .

وبالرغم من ذلك ظل العلم يلعب دوراً حاسماً فى الحرب . فقد منحت النار الإغريقية البقاء للأمبراطورية البيزنطية قرونا عديدة ، وحطمت المدفية نظام الإقطاع ، ثم خلقت أسطورة جاندارك بإبطالها الأقواس الإنجليزية . وقد تقرب أعظم رجال النهضة إلى أصحاب السلطة بمقدرتهم على الحرب العلمية . وحين أراد ليوناردو أن يحصل على وظيفة عند دوق ميلانو كتب إلى الدوق رسالة طويلة عن التحسينات التى أدخلها على فن التحصين ، وذكر باختصار فى جملتها الأخيرة أنه يستطيع كذلك أن يرسم . ولقد حصل على الوظيفة ، ولو أننى أشك فى أن الدوق وصل فى قراءة

الرسالة إلى الجملة الأخيرة . وحين أراد جاليليو أن يحصل على عمل عند دوق توسكانيا العظيم لم يعتمد إلا على حسابه لخط سير قذائف المدافع . وإن العلماء الذين لم يعدموا على المقصلة فى الثورة الفرنسية ليرجع عدم إعدامهم إلى مساهمتهم فى المجهود الحربى ، ولست أعلم من الأمثلة التى تشهد على خلاف ذلك إلا مثلا واحدا ، فقد استشير فاراداى أثناء حرب القرم بشأن الغاز السام ، فأجاب بأنه إجراء عملى ، ولكنه لا تقره الاعتبارات الإنسانية . وقد تغلب رأيه فى تلك الأيام ولكن ذلك عهد مضى منذ زمن طويل :

وكان من الممكن أن تشتهر حرب القرم على يدى كنجليك **Kinglake** فى اللغة الرومانتيكية التى كتبت فى عصر الفروسية ، ولكن الحروب الحديثة شىء يختلف عن ذلك . ولا شك أنه لا يزال ثمة ضباط ذوو شهامة ، ورجال شجعان قد يموتون بنبل على الطريقة القديمة ، ولكن المهم ليس هؤلاء . إن عالما من علماء الذرة يساوى فرقا كثيرة من المشاة . ومع قطع النظر عن تطبيق آخر ما وصل إليه العلم لا يأتى النصر فى الحرب عن طريق الجيوش البطولية ، وإنما عن طريق الصناعات الثقيلة . تأمل انتصار الولايات المتحدة بعد حادث « بيرل هاربر » . فلم تبد البطولة فى أمة من الأمم كما بدت عند اليابانيين ، ولكنهم انهزموا أمام الإنتاج الصناعى الأمريكى . إن الأمم الحديثة يجب أن تعلق أملها فى النصر على الصلب ، والنفط ، والأورانيوم ، لا على التفوق العسكرى .

ولم تصبح الحرب الحديثة إلى هذه اللحظة أكثر تحطيما للحياة من حروب العصور الأقل اصطباغا بالعلم ، لأن الخسارة الناشئة عن فتك الأسلحة قد عوضها التحسن فى الطب والوقاية . وقد كانت الطواعين إلى عهود قريبة تكاد تكون أكثر فتكا من جيوش الأعداء . وحين حاصر « سينا خرب » بيت المقدس مات من جيشه مائة وخمسة وثمانون ألفا فى ليلة واحدة . « وحين نهضوا فى الصباح

المبكر وجدوا أنهم جميعا جثث هامدة » . (سفر الملوك الثانى (١٩ — ٣٥) .
وقد كان لطاعون أثينا أثر كبير فى تقرير مصير حروب البلوبونيز . وإن الحروب الكثيرة بين سيراقوز وقرطاجنة انتهت فى الغالب بالطاعون . وبعد أن تغلب بارباروسا على حلف لومبارد فقد كل جيشه تقريبا بالمرض ، واضطر إلى أن يعبر الألب سرا . وكانت نسبة الوفيات فى مثل هذه الحملات أكبر بكثير منها فى الحربين العظيمتين فى قرننا هذا . ولست أقول إن حروب المستقبل سيكون لها نسبة وفيات منخفضة كهاتين الحربين ، فذلك أمر سأعود إليه بعد قليل ، وإنما أقول فقط إن كثيرا من الناس لا يعلم أن العلم حتى هذه الأيام لم يجعل الحرب أكثر فتكا .

وثمة نواح أخرى ازدادت فيها شرور الحرب على أى حال ، وقد ظلت فرنسا فى حرب تكاد تكون مستمرة منذ ١٧٩٢ حتى ١٨١٥ ، وانهزمت فى النهاية هزيمة تامة ؛ ولكن سكان فرنسا لم يقاسوا بعد ١٨١٥ أى شىء شبيه بما قاساه وسط أوربا منذ عام ١٩٤٥ ، فالأمة الحديثة فى الحرب أكثر نظاما وتدريبا ، ومجهودها أكثر تركزا وتوجها للوصول إلى النصر مما كان قبل عصر الصناعة . وقد أدى ذلك إلى جعل الهزيمة أكثر خطرا ، وتسببا فى الفوضى ، وتحطيما للروح المعنوية عند السكان ، مما كانت أيام نابليون .

ولكنه من غير الممكن حتى من هذه الناحية أن نضع قاعدة عامة ؛ إذ أن بعض الحروب فى الماضى كانت من حيث التسبب فى الفوضى ، والقضاء على المدنية فى حقول المعارك لا تقل عن الحرب العالمية الثانية . إن شمال أفريقيا لم يصل قط إلى مستوى من الرخاء شبيه بما كان له تحت الحكم الرومانى . ولم تندمل جروح الفرس من المغول ، ولا جروح سوريا من الترك . ولقد كان ثمة دائما نوعان من الحروب : يتعرض المنهزمون فى أحدهما لكارثة ، ويتعرضون فى ثانيهما

للمتاعب . ويبدو لسوء الحظ أننا داخلون فى عهد كل حروبه من النوع الأول .

فالقنبلةالذرية ، وأكثر منها القنبلة الهيدروجينية ، تسببان مخاوف جديدة تتصل بالشكوك الحديثة المتعلقة بآثار العلم على الحياة الإنسانية . ولقد أشار الثقات ومنهم أينشتاين إلى أن هناك خطرا من القضاء على الحياة كلها على هذا الكوكب . ولست شخصيا أظن أن هذا سيحدث فى الحرب القادمة ، بل ربما حدث فى الحرب التى تليها ، إذا سمح له أن يحدث . فإذا كان ما أتوقعه صحيحا ، فعلينا أن نختار فى خلال السنوات الخمسين القادمة بين أمرين : فإما أن نسمح للجنس البشرى أن يفنى نفسه ، أوأن نتنازل عن بعض الحريات العزيزةعلينا ، وأخصها حرية قتل الأجانب كلما عنّ لنا ذلك . وأظن من المحتمل أن الجنس البشرى سيختار فناءه من بين هذين الأمرين . وسيتم الاختيار بالطبع عن طريق إقناع أنفسنا بأنه لن يتم ، لأن انتصار الحق (وهكذا يقول العسكريون فى كلا الجانبين) مؤكد دون الوقوع فى كارثة عالمية : وربما كنا نعيش اليوم فى آخر عصور الإنسان ، فإذا كان الأمر كذلك فإن فناء الإنسان سيكون مرجعه إلى العلم .

فإذا قرر الجنس البشرى أن يستمر على قيد الحياة ، فسيضطر إلى إحداث تغيرات عظيمة فى طرق تفكيره وإحساسه وسلوكه . يجب أن نتعلم ألا نقول أبداً : «إن الموت خير من العار» ، ويتحتم علينا أن نخضع للقانون ، حتى لو فرضه الأجانب الذين نكرههم ونحتقرهم ، ونظن أنهم يعمون عن كل اعتبارات الفضيلة . تأمل بعض الأمثلة المادية : إن اليهود والعرب يجب أن يتفقوا على الخضوع للتحكيم ، فإذا جاء الحكم ضد اليهود ، فسوف يكون على رئيس الولايات المتحدة أن يضمن نصر الجانب الذى يعارضه ، لأنه ما دام يؤيد السلطة العالمية ، فسيفقد الأصوات اليهودية فى ولاية نيويورك . فإذا جاء الحكم من جهة أخرى فى صالح

اليهود ، فسيغضب العالم الإسلامى ، وسيعضده كل الساخطين الآخرين . فإذا أخذنا مثالا آخر ، وجدنا إيرلندا الحرة تطالب بحقها فى أن يخضع لها البروتستنت فى ألستر ؛ وتحظى إيرلندا فى هذه المسألة بتعضيد الولايات المتحدة ، وتحظى ألستر بتعضيد بريطانيا . فهل تستطيع سلطة عالمية أن تحل هذا الخلاف ؟ ثم إن الهندوالباكستان لا تستطيعان أن تتفقا على كشمير ، ولهذا كان على إحداهما أن تعضد روسيا ، وأن تعضد أخراهما الولايات المتحدة . وواضح لكل إنسان يشارك فى كل من هذه الخلافات أن المسألة عنده أهم بكثير من استمرار الحياة على كوكبنا هذا . وإن الأمل فى أن يسمح الجنس البشرى لنفسه بالبقاء من ثم أمل ضئيل .

فإذا قدر للحياة الإنسانية أن تبقى برغم العلم ، فسيكون على الإنسان أن يتعلم كيف يدرب عواطفه تدريبا لم يكن ضروريا فى الماضى . فعلى الناس أن يخضعوا للقانون ، حتى ولو ظنوا أن هذا القانون جائر متحيز ، وعلى الشعوب المقتنعة بأنها لا تطلب إلاّ مجرد العدالة أن توافق على أن تُحْرَم مطالبها على يد سلطة محايدة . ولست أقول إنّ ذلك سهل ، ولا أتنبأ بأنه سيحدث ، وإنما أقول فقط إنه إذا لم يحدث فسيفنى الجنس البشرى ، وسيكون فناؤه نتيجة من نتائج العلم .

يجب أن يتم الاختيار خلال خمسين عاما ؛ وهو اختيار بين التعقل والموت . وأقصد بالتعقل الرغبة فى الخضوع للقانون كما أعلنته السلطة العالمية . وأخشى أن النوع الإنسانى سيختار الموت ، وأرجو أن أكون على خطأ .

———

الفصل السادس

العلم والقيم

إن الفلسفة التي ظُنَّ أنها تناسب العلم قد اختلفت من زمن إلى زمن . فالعلم بالعلم بالنسبة لنيوتن ومعظم معاصريه من الإنجليز دليل على وجود الله باعتباره المُقنِّن القويّ : فهو الذي سن قانون الجاذبية ، وكل القوانين الطبيعية الأخرى التي كشف عنها الإنجليز . وظل الإنسان ، بالرغم من كوبرنيق ، مركزا معنويا للكون ، وقد تركزت حكمة الله في آثار أفعاله على النوع الإنساني . وكان الراديكاليون من بين الفلاسفة الفرنسيين على خصام سياسي مع الكنيسة ، فاتخذوا وجهة نظر أخرى . فهم لم يعترفوا بأن القوانين تستلزم مقننا ، ورأوا من جهة أخرى أن القوانين الطبيعية يمكن أن تفسر السلوك الإنساني . وقد أدى بهم ذلك إلى المادية ، وإنكار حرية الإرادة . فالكون في نظرهم لا هدف له ، والإنسان في هذا الكون شيء لا خطر له . إن سعة الكون قد تركت أثرها في نفوسهم ، وألهمتهم بشكل جديد من أشكال الاتضاع ، ليحل محل ذلك الذي أبطله الإلحاد . ولقد جاء التعبير عن هذه النظرة تعبيرا كاملا في قصيدة صغيرة نظمها ليوباردي ، وهي تعبر أكثر من أية قصيدة أخرى أعرفها عن إحساسي بالكون والعواطف الإنسانية :

ــ اللانهاية ــ

بالشوق لذلك التل إذ يبدو لعينيّ في الغموض الوحيد

وبنفسى ماحجّبت أغصن السو ر من المنظر القصىّ الفريد

فإذا ما جلست أرسل طرفى وخيالى حرا بغير قيود

فى فضاء وراءه الصمت والعمق وغور الظنون دون حدود

أوشك القلب أن يفزّعه الوهم فيرتدّ فى انكسار القعيد

وترى الريح رجّلت أغصن الدّو ح فعادت إلى التفاف عنيد

فى دوىّ قارنته بالسكون اللا نهائى فى الفضاء البعيد

فتذكرت رقدة الأزل القبور فى غفوة السماء الجهيد

فإذا بى غرقت فى لجّة الفكر وفى موجه العتى العديد

ربما يسعد الغريق بهذا البحر من حطمة الشراع التليد(١)

ولكن هذه الطريقة من طرق الإحساس أصبحت عتيقة بالية . فقد تعود الناس أن ينظروا إلى العلم باعتباره وسيلة لمعرفة العالم ؛ أما الآن، فإنه ينظر إليه باعتباره وسيلة لتغيير العالم ؛ وذلك بسبب انتصار المنهج العلمى . إن وجهة النظر الحديثة هذه ، وهى التى يصطبغ بها التطبيق العلمى فى كل من أمريكا وروسيا ، كما تصطبغ بها النظريات العلمية عند كثير من الفلاسفة المحدثين ، قد أعلنها ماركس عام ١٨٤٥ ، حين قال فى كتابه Theses on Feuerbach :

« إن مسألة انتماء الحقيقة الموضوعية إلى التفكير الإنسانى أو عدم انتمائها ليست مسألة نظرية ، ولكنها مسألة عملية : فالحقيقة فى الفكر ، أى صبغة الواقع والقوة فيه ، يجب أن توضح بالعمل والتطبيق . والاختلاف على واقعيّة فكرة مجردة ما

---

(١) ترجمها ر . تريفليان وأخذت من Translations from Leopardi مطبعة جامعة كمبردج ١٩٤١ .

أو عدم واقعيتها مسألة مدرسية خالصة ... فلم يفعل الفلاسفة أكثر من شرح العالم بطرق مختلفة ، ولكن العمل الحقيق هو تغيير العالم » .

أما من وجهة نظر الفلسفة الفنية technical ، فإن هذه النظرية قد تطور بها أحسن التطور جون ديوى ، الذى يعتبره الأمريكيون أشهر فلاسفتهم . فهى من الناحية النظرية تستبعد بالتحليل فكرة « الحق » وتضع موضعها « المنفعة » . ولقد كان يظن أنك إذا اعتقدت أن قيصر قد اخترق مجرى رابيكون فقد اعتقدت حقا ، لأن قيصر اخترقه فعلا ؛ ويقول الفلاسفة الذين نتكلم عنهم : إن الأمر ليس كذلك ، فلأن تقول إن اعتقادك «حق» ، إن ذلك لطريقة أخرى للقول بأنك تجده أكثر نفعا من الاعتقاد المضاد . وربما اعترضت من جهتى بأن هناك حالات من المعتقدات التاريخية التى اعترف بخطئها فى النهاية ، بعد أن كانت أزمانا طويلة محل القبول العام ، وكل من يختبر هذه المعتقدات يجد أن الخطأ المقبول فى زمنه أكثر نفعا من الحق الذى لم يكن قد تم الاعتراف به . ولكن هذا النوع من الاعتراض يدفعه الرأى القائل إن عقيدة ما قد تكون صوابا فى زمن وخطأ فى زمن آخر . لقد كان من الحق فى عام ١٩٢٠ أن تروتسكى قد لعب دوراً هاما فى الثورة الروسية ، ولكن ذلك كان خطأ فى عام ١٩٣٠ . وإن نتائج هذا الاعتقاد قد تم استنتاجها بطريقة مدهشة فى كتاب « ١٩٨٤ » لجورج أورويل .

وتشتق هذه الفلسفة إيحاءاتها من العلم فى اتجاهات مختلفة . خذ أولا أحسن نواحيها كما تطور بها ديوى : فهو يشير إلى تغير النظريات العلمية بين وقت وآخر ، وإلى أن ما يفضل نظرية على أخرى هو أنها يمكن تطبيقها . وحين يكشف عن الظواهر الجديدة التى لاتنطبق عليها ، تطرح هذه النظرية جانبا . والنظرية فى رأى ديوى أداة كالأدوات الأخرى تمكننا من تناول المادة الخام بالتشكيل . وهى ككل أداة أخرى تقاس صلاحيتها أو عدمها بكفاءتها فى هذا التناول ، وككل

أداة أخرى كذلك يوجد أنها صالحة فى وقت ما ،وغير صالحة فى الوقت الآخر . وهى ما دامت صالحة يمكن أن تسمى « حقا » ، ولكن هذه الكلمة ينبغى ألا تعطى دلالتها العادية ، ولذا يفضل ديوى على إستعمال هذه الكلمة أن يستخدم التعبير « زعم مبرّر » warranted assertibility .

والنبع الثانى للنظرية هو المنهج . ما الذى نريد أن نعلمه عن الكهرباء ؟ إنه كيفيّة جعلها نافعة لنا . والرغبة فى زيادة المعرفة عن ذلك دخول فى الميتافيزيقا غير النافعة . ويستحق العلم الإعجاب لأنه يمنح سيطرة على الطبيعة ، وتأتى هذه السيطرة جميعها من المنهج ، ولهذا كان أى شرح يخضع العلم للمنهج هو احتفاظا بجزئه النافع ، وليس يطرح إلا أثقال ركام القرون الوسطى . وإذا كان المنهج هو كل ما يهمك ، فمن المحتمل أن تجد هذه المناقشة مقنعة جدا .

والميزة الثالثة للنظرة العملية pragmatism ، وهى لا يمكن فصلها عن الثانية ، هى حب السيطرة . فمعظم رغبات الناس ذات أنواع مختلفة ، فهناك اللذات الحسية ، والمسرات الجمالية ، والمباهج التأملية ، وثمة وجدانات خاصة ، وهناك السلطة ، وربما توصلت أية واحدة من هذه إلى التغلب فى نفس الفرد على الأخريات . فإذا تغلّبت وصلنا إلى وجهة نظر ماركس القائلة: إنه ليس من المهم أن نفهم العالم ، بل أن نغيره . إن النظريات التقليديه التى تدور حول المعرفة جاء بها رجال عشقوا التأمل ،وهذا ذوق رهبانى كما يقول المحدثون من أتباع المذهب الميكانيكى . إن المذهب الميكانيكى لنزيد من السيطرة الإنسانية إلى درجة عظيمة جدا ؛ ومن ثم كانت هذه الناحية من العلم هى التى تجذب عشاق السيطرة . وإذا كانت السيطرة هى كل ما تريد بالعلم ، جاءتك النظرية المطبقة للرجل العملى pragmatist بالذى تريد ، دون الزيادات التى تبدو غير ضرورية فى نظرك . إنها لتعطيك حتى أكثر مما كنت تتوقع ؛ لأنك إذا سيطرت على الشرطة أعطتك قوة شبه إلهية « لصنع الحق » .

ولن تستطيع أن تجعل الشمس باردة ، ولـكنك تستطيع أن تمنح لقب « الحق » من الناحية العملية للقضية القائلة: « الشمس باردة » ،إذا قررت أن تعدم كل إنسان ينـكرها . وأنا أشك فى أن زيوس كان يستطيع أن يفعل أكثر من هذا .

إن هذه الفلسفة « الهندسية » ،كما يمكن أن تسمى ، تتميز عن الإدراك العام Common sense ، وعن بقية الفلسفات الأخرى الشائعة ، من حيث إنها ترفض الاعتراف «بالواقع» ، باعتباره فـكرة أساسية فى تحديد «الحق» . فإذا قلت مثلا : « القطب الجنوبى بارد » ، فأنت تقول شيئا هو « الحق » فى رأى وجهات النظر التقليدية ؛ بسبب كونه هو «الواقع» ، أى أن القطب الجنوبى بارد . وهذا هو الواقع لا لأن الناس يعتقدونه ، ولا لأن من النافع أن نعتقده ، ولـكنه «واقع» وكفى . وحين لا تتصل الوقائع ببنى الإنسان وأعمالهم ، تمثل هذه الوقائع محدوديات القوة الإنسانية . فنحن نجد أنفسنا فى كون من نوع ما ، ثم نستـكشف خصوص هذا النوع عن طريق الملاحظة ، لا عن طريق فرض آرائنا . وفى الحق إننا نستطيع أن نحدث بعض التغييرات على القشرة السطحية للأرض ، ولـكننا لا نستطيع أن نفعل ذلك فى أى مكان آخر ، ومن ثم نستطيع أن نتقبل الفلسفة التى تنظر إلى القشرة السطحية للأرض كما لو كانت هى الـكون كله . ولـكن قوتنا محدودة حتى بالنسبة لسطح الأرض . وإن نسياننا ما يحيط بنا من حقائق مستقلة فى معظمها عن رغباتنا ليس إلا شكلا من أشكال الغرور المجنون . وقد نما هذا النوع من الجنون نتيجة لانتصار المنهج العلمى . وآخر مثل من أمثلته رفض ستالين للاعتقاد أن الوراثة يمكن أن يكون عندها من الخطل ما يسمح لها بأن تتجاهل المراسيم السوفيتية ، وذلك شبيه بخرخيس ملك الفرس وهو يضرب الدردنيل Hellespont بسوطه ، ليعلم Poseidon إله البحر درسا قاسيا .

ولقد كتبت فى عام ١٩٠٧ أقول : « إن النظرية البراجماتيّـة (العملية) عن

« الحق » تتصل فى ذاتها باللجوء إلى القوة . فإذا كان ثمة « حق » غير إنسانى يمكن لإنسان ما أن يعلمه على حين لا يعلمه الإنسان الآخر ، فثمة معيار خارجى بالنسبة للمتنازعين يجب أن تطرح عليه نقطة الخلاف ، ومن هنا كانت أية تسوية سلمية عادلة للمنازعات ممكنة ، ولو من الناحية النظرية على الأقل . فإذا كانت الطريقة الوحيدة للكشف عن أى المتنازعين على جانب الحق هى الانتظار حتى نرى أيهما ينجح ، فلن يكون ثمة أى مبدأ إلا مبدأ القوة يمكن أن يوصل عن طريقه إلى حل . أما فى المسائل الدوليّة فإن أطراف النزاع لكونهم فى الغالب من القوة إلى درجة يظلون معها خارج السيطرة ، تبدو هذه الاعتبارات أكثر أهمية . والآمال المعلقة بالسلام العالمى ، كالرغبة فى استكمال الأمن الداخلى ، تتوقف على خلق قوة ذات كفاءة من الرأى العام مؤسسة على تقدير الصواب والخطأ فى المنازعات . ولذا كان من الخطأ أن يقال إن النزاع قد حلّ بالقوة ، دون أن يضاف إلى ذلك أن القوة تتوقف على العدالة . ولكن إمكان إيجاد مثل هذا الرأى العام يتوقف بدوره على إحتمال وجود معيار للعدالة يكون سببا لها لا مسببا عن رغبات المجتمع ، ويبدو أن معيار العدالة هذا لا يتمشى مع الفلسفة البراجماتية (العملية) . ولهذا تتطور هذه الفلسفة بضرورة وجودها إلى لجوء إلى القوة ، وتحكيم السلاح بالرغم من أنها تبدأ من الحرية والتسامح ، وتصبح بهذا التطور مناسبة للتشكل بشكل الديموقراطية فى الداخل ، وشكل الغزو والاستعمار فى الخارج فى نفس الوقت . وهى هنا مرة أخرى تتكيف تكيفا أدق لتناسب مقتضيات الزمن أكثر مما تفعل أية فلسفة أُوجدت حتى الآن .

فإذا لخصنا ما سبق ، خرجنا بأن الفلسفة البرجماتية تلجأ إلى المزاج العقلى الذى يجد فى متناوله كل المادة التخيلية ، والذى يشعر مع الثقة بالتقدم ، غير عالم بمحدوديات القوة الإنسانية ، والذى يعشق المعارك بكل ما يحيط بها من مخاطر ، لأنه ليس عنده أى شك حقيقى فى أنه سوف يصل إلى النصر ، والذى يتطلب الدّين كما يتطلب

الخطوط الحديدية ، والضوء الكهربائى باعتبار كل أولئك راحة وعونا للمرء فى شئون هذا العالم ، لا باعتبارها موضوعات غير إنسانية تساق لإشباع نهمه إلى الكمال . أما هؤلاء الذين يشعرون بأن الحياة على هذا الكوكب حياة فى السجن ، مالم تفتح لها نوافذ تطل على ماوراءها من العالم الأكبر ، وأما هؤلاء الذين يرون أن الاعتقاد فى قدرة الإنسان غرور ، ويتطلبون حرية المذهب الرواقى التى تأتى عن طريق السيطرة على العواطف ، أكثر مما تأتى عن السيطرة النابليونية التى ترى ممالك هذا العالم تحت أقدامها ، وباختصار : أما هؤلاء الذين لا يجدون الإنسان صالحا لأن يُعْبَد ، فسيرون العالم البرجماتى (العملى) ضيقا صغيراً يحرم الحياة كل ما يمنحها القيمة ، ويجعل الإنسان نفسه أصغر مما هو ، لأنه يحرم العالم الذى يتأمله كل مافيه من رواء .

دعنا نحاول الآن أن نلخص الزيادة التى جعلها العلم ممكنة فى السعادة الإنسانية ، وما يحتمل أن يقويه العلم من الشرور القديمة .

ولست أدعى أن هناك أية طريقة يمكن بها الوصول إلى الألف عام التى يحكم فيها المسيح . ومهما كانت نظمنا الاجتماعية ، فسيظل الموت والمرض موجودين ، وإن قلت نسبتهما ، وسيكون ثمة شيخوخة ، وجنون ، وسيكون هناك إما خطر أو ملل ، ومادامت الأسرة الحاضرة باقية ، فسيظل ثمة حب غير متبادل ، وطغيان آباء ، وعقوق أبناء ، فإذا حل شىء جديد محل الأسرة ، فستأتى معه شرور جديدة ربما كانت أفظع من هذه . ولا يمكن أن تصير الحياة الإنسانية نعمة غير مشوبة ، وإذا سمح الإنسان لنفسه بآمال كبيرة ، فإنه يخطب ود خيبة الأمل . والذى نستطيع مع هذا أن نأمل فيه كثير جدا . ولن أتنبأ بعد بما سيحدث ، ولكن سأشير إلى أحسن ما يمكن أن يحدث ، وإلى كون هذا الأحسن سيحدث إذا رغب فيه الجميع .

هناك ضرران قديمان ربما قواهما العلم إذا استخدما استخداما خاطئا : ذانك هما

الطغيان والحرب ؛ ولكننى أهتم الآن بالإمكانيات المستحبة أكثر من اهتمامى بالإمكانيات المكروهة .

ويستطيع العلم أن يمنحنا نوعين من أنواع المنافع : فهو يستطيع أن يقلل من الأمور السيئة ، ويستطيع أن يزيد من الأمور الحسنة . دعنا إذا نبدأ بالأمور الأولى :

يستطيع العلم أن يقلل من الفقر ، ومن زيادة ساعات العمل عما يجب . وقد تطلب كل فرد فى المجتمعات الإنسانية الأولى قبل بدء الزراعة ميلين مربعين أو أكثر لازمين للإبقاء على حياته . وكانت مواد المعيشة قليلة ، ولا بد أن يكون الموت جوعا فى تلك الأيام شائعا . وقد تشارك الناس فى هذه المرحلة فى نفس الخليط من البؤس والاستمتاع دون تفكير ، وهو الخليط الذى تمتاز به اليوم حياة الحيوانات الأخرى .

وكان ظهور الزراعة تقدما فنيا له نفس الأهمية التى نعلقها اليوم على الصناعة الآلية . وإن الطريقة التى استخدمت بها الزراعة تعتبر انذاراً فظيعا لنا فى الوقت الحاضر . فقد تسببت فى وجود الرقيق ، والقطين ، serfs ،والتضحية بالانسان ، والملكية المطلقة ، والحروب الكبرى . وهى بدل أن ترفع مستوى المعيشة زادت من تكاثر السكان ، إلا الأقلية الحاكمة الضئيلة . ولربما زادت على العموم من مجموع المتاعب الإنسانية . وليس من المستحيل أن تسير الصناعة فى نفس الطريق .

ولكن نمو الصناعة لحسن الحظ جاء فى الغرب متفقا فى التوقيت مع نمو الديموقراطية ، ومن الممكن الآن ،إذا لم يزد عدد السكان فى العالم بسرعة هائلة ، أن ينتج عمل الشخص الواحد أكثر مما يتطلبه ليعيش هو وأسرته . وهذا الإمكان إذا صادف ديموقراطية ذكية لا تضللها المذاهب التعصبية يمكن أن يستخدم لرفع مستوى المعيشة . وقد استخدم هكذا إلى حد ما فى بريطانيا وأمريكا ، وكان يمكن أن

يستخدم بصورة أفضل ما لم تنشب الحرب . إن استخدامه لرفع مستوى المعيشة قد توقف فى معظمه على أمور ثلاثة : الديموقراطية ، واتحادات العمال ، وتحديد النسل ؛ وقد قوبلت هذه الثلاثة جميعا بالعداوة من الأغنياء بالطبع . فإذا أمكن أن تنتشر هذه الأمور الثلاثة فى بقية العالم ، أصبح العالم تعمه الصناعة ، وإذا تلاشى خطر الحروب العظمى ، أمكن أن ينمحى الفقر من جميع أنحاء العالم ، وسوف لا يكون من الضرورى فى ذلك الوقت ان تزيد ساعات العمل عما يجب . ولكن هذه الثلاثة الأمور إذا لم تنتشر فى العالم ، فستخلق الصناعة نظاما للحكم شبيها بالنظام الذى مكن الفراعنة من بناء الأهرام . وإذا ظل سكان العالم يزدادون بالنسبة الحاضرة ، فسيكون من المستحيل استحالة خاصة أن ينمحى الفقر ، أو تقل ساعات العمل .

ولقد منح العلم النوع الإنسانى نعمة كبرى بتقدم الطب . وكان الناس فى القرن الثامن عشر يتوقعون أن يموت معظم أطفالهم قبل أن يكبروا . وبدأ التحسن فى بداية القرن التاسع عشر ، وكان معظمه يعود إلى التطعيم ، وظل كذلك منذ ذلك العهد ، ولا يزال مستمرا . إن نسبة وفيات الأطفال فى انجلترا وويلز كانت ثمانين فى الألف عام ١٩٢٠ ، وأصبحت أربعة وثلاثين فى الألف عام ٩٤٧

ولقد كانت نسبة الوفيات عموما (١٠ر٨) عام ١٩٤٨ وهى أخفض نسبة سجلت حتى ذلك التاريخ . وليس هناك حد واضح للتحسن فى الصحة الذى يمكن أن يسببه الطب . وقد تناقص مجموع الآلام الإنسانية با كتشاف البنج .

إن تناقص الخروج على القانون وجرائم العنف ما كان ليمكن لو لم يقيض له العلم . وإنك إذا قرأت قصة من قصص القرن الثامن عشر ، فستخرج منها بإحساس غريب بالحالة التى كانت عليها لندن : شوارع مظلمة ، ولصوص ، وقطاع طرق ، ولا شىء يمكن أن نعتبره قوات شرطة ، بل نجد قانونا جنائيا همجيا قاسيا إلى درجة مخزية ،

أريد له أن يكون محاولة لتعويض النقص فى قوة الشرطة . إن إضاءة الطرقات « والتليفون ، وبصمات الأصابع ، وعلم النفس الذى يدرس الجناية والجزاء ، كل ذلك يمثل تقدما علميا جعل من الممكن أن تقل الجرائم أكثر مما كان يتوقع أى فيلسوف من فلاسفة المدن الفاضلة فى « عصر العقل » Age of Reason .

وإذ نصل الآن إلى الحسنيات الإيجابية ، نجد أن زيادة هائلة فى الثقافة صارت ممكنة بزيادة إنتاج العمل . أما فيما يخص الثقافة العامة ، فهذا ملحوظ بوضوح فى أمريكا ، حيث نجد التعليم مجانيا ، حتى فى المرحلة الجامعية . إننى إذا ركبت سيارة أجرة فى نيويورك ، فسأجد غالبا أن السائق يحمل شهادة الدكتوراه ، وقد يبدأ معى فى نقاش عن الفلسفه ، فنقع معاً فى خطر من حوادث المرور . أما فى انجلترا وفى أمريكا كذلك ، فالملاحظ أن ثمة تقدما على أعلا مستوى . اقرأ مثلا عبارة جبون عن أكسفورد .

ومما يتمشى مع هذا ازدياد الفرصة . فمن الأسهل الآن بالنسبة لأى شاب محروم مما يسمى الميزات الطبيعية (أى الثروة الروثة) أن يرقى إلى مرتبة تمكنه من أن يستغل مواهبه أحسن استغلال . وثمة الكثير مما يمكن حدوثه فى هذا الاتجاه ، ولكن هناك كل سبب ممكن لأن نتوقع حدوثه الفعلى فى انجلترا وأمريكا . ولابد أن يكون تضييع المواهب فى العصور الخالية باعثا على الاشمئزاز ، وإننى أقشعر من التفكير فى إمكان ضخامة عدد الخاملين الصامتين ممن كانوا فى عبقرية ميلتون • أما أمثال ميلتون فى أيامنا هذه ، مع الأسف ، فيظلون خاملين فى معظمهم ، ولو أنهم غير صامتين . ولكن عصرنا هذا ليس عصرا شعريا على أى حال •

وهناك أخيرا سعادة موزعة بين الناس أكبر مما فى أى وقت مضى • ولو أن خوف الحرب قد انعدم ، لأمكن لهذا التحسن أن يكون أكبر كثيرا مما هو الآن •

دعنا لحظة نتأمل نوع الاتجاه العقلى الذى يجب أن يسود، إذا أريد إيجاد عالم سعيد ، والإبقاء عليه .

سأبدأ بالمزاج العقلى المطلوب ، فيجب أن توجد الرغبات الكثيرة الموجهة إلى الكشف عن الحقائق الهامة ، وأن يوجد عدم الرغبة فى الجرى وراء الأوهام السارّة . فى العالم فى يومنا هذا نظامان مذهبيان متعارضان : هما الكاثوليكية ، والشيوعية .فإذا اعتقدت فى أحدهما اعتقادا جازما يمكن أنّ يدفعك إلى الاستشهاد فى سبيله ، أمكنك أن تعيش عيشة سعيدة ، وأمكنك حتى أن تستمتع بميتة سعيدة ، إذا أسرع الموت إليك . وتستطيع أن تهدى الناس إلى مذهبك ، وأن تكون جيشا ، وأن تثير البغضاء ضد المذهب الآخر وضد أتباعه ، وتستطيع على وجه العموم أن تبدو مؤثرا إلى غير حد . ويتجه إلىّ دائما هذا السؤال : ما الذى تستطيع بنظرتك العقلية القديمة أن تقدمه لطالب الخلاص يمكن أن توازنه بالطمأنينة التى يجدها فى مذهب عقدى محدد العالم fensed in .

والجواب على هذا ذو جوانب كثيرة . فأنا لا أقول أولا إننى أستطيع أن أمنح قدرا من السعادة يساوى ما تمنحه منها التنازل عن العقل ، ولا أقول إننى أستطيع أن أمنح قدراً من السعادة يساوى ما يمنحه الشراب ، أو المخدر ، أو تكديس الثروة عن طريق مخادعة الأرامل واليتامى . لست أهتم إذا بالسعادة النابعة من الراحة الفردية ، وإنما أهتم بسعادة الجنس البشرى . ولو أنك أردت صادقا سعادة الجنس البشرى لعزّت عليك أنواع من السعادة الشخصية المنحطة ،فإذا كان طفلك مريضا وأنت والد ذو ضمير حى ، قبلت التشخيص الطبى مهما كان مثار شك وتثبيط . ولو قبلت التشخيص المتفائل من منتحل الطب ، ثم مات طفلك بعد ذلك ، فلن تعذرك مسرّة الاعتقاد فى قول هذا المحتال وإن طالت .ولو أحب الناس الإنسانيّة بالأصالة

التى يحبون بها أطفالهم ، لـكانوا فى السياسة عازفين عن الانخداع بالخرافات المضللة، بقدر ماهم عازفون عنها فى البيت .

والنقطة التى تتلو ذلك أن المذاهب التعصبية ضارة . وذلك واضح حين يضطر بعضها إلى منافسه البعض ؛ لأنها فى هذه الحالة تنشر الـكراهية والتطاحن ، ولـكن ذلك صادق حتى مع وجود مذهب تعصبى منفرد . فلن يسمح هذا المذهب بالبحث الحر ؛ لأن ذلك لو سمح به لا حتمل أن يهز كيانه . فلا بد لهذا المذهب أن يعارض التقدم العقلى . وإذا كان هذا المذهب كما هى العادة ذا نظام كهنوتى أعطى قوة عظيمة لطائفة كرست نفسها مهنيا للمحافظة على الوضع العقلى القائم كما هو ، وللتظاهر باليقين حيث لا يقين هناك فى الحقيقة .

ويشتمل كل مذهب تعصبى على الـكراهية فى جوهره . ولقد عرفت ذات مرة متعصبا يدافع عن ضرورة وجود لغة عالمية، ولـكنه كان يُفَـضِّـل الإيدو على الإسبرانتو . فحين استمعت إلى حديثه روّعنى فجور واضعى لغة الاسبرانتو الذين بدا لى أنهم قد انغمسوا فى أعماق من الشر لا تتصور . ولـكن صديقى أخفق لحسن الحظ فى أن يقنع أية حكومة برأيه ، ولهذا بقى واضعو الإسبرانتو . فلو أن هذا كان على رأس دولة سكانها مائتا مليون ، فماذا كانت النتيجة ؟ إننى لأقشعر حين أفـكر فيما كان يمكن أن يحدث لهم .

وغالبا ما يكون عنصر الـكراهية متغلبا فى المذهب التعصبى ؛ فالذين يخبرونك بأنهم يحبون العمال هم فى الحقيقة يكرهون الأغنياء فحسب . ويظن بعض هؤلاء الذين يدعونك إلى أن تحب جارك كما تحب نفسك أن من الصواب أن تـكره من لا يحبون جيرانهم . ولـكون هؤلاء هم الغالبية العظمى ، فلن ينبع من مذهبهم أى ازدياد ملحوظ فى حنان الحب .

ومع قطع النظر عن هذه الشرور المعينة ، يظل كل اتجاه إلى قبول معتقدما قبولا أعمى على أساس الوثوق فى مصدره مضادا للروح العلمية ؛ فإذا انتشر هذا الاتجاه فلن يتفق إلا نادرا جدا مع التقدّم العلمى . ولا يشتمل الإنجيل فحسب على عبارات يتضح عدم صدقها ، بل تشتمل عليها مؤلفات ماركس وإنجلز كذلك . يقول الإنجيل: إن الأرنب البرى يجتر طعامه ؛ وقال إنجلز: إن النمسا بين سينتصرون فى حرب ١٨٦٦ . وهذه حجج ضد أصحاب النظرة العملية الأساسية fundamentalists ، ولكن حين يظل الاعتقاد فى الكتاب المقدس ، وترفض الآراء العملية الأساسية ، يصبح الكتاب فى أيدى نظام كهنوتى . إن معنى المادية الجدلية يتغير كل عشرة أعوام ، والعقوبة على تفسيرها تفسيرا متأخرا عن أوانه هى الموت أو معسكرات الاعتقال .

يرجع انتصار العلم إلى استبدال الملاحظة والاستنباط بالنقل عن الثقات ، وكل محاولة لإعادة النقل عن الثقات فى النشاط العقلى خطوة رجعية . ومن عناصر الاتجاه العلمى الا تدعى الآراء العلمية لنفسها مستوى اليقين، بل أن تبدو أكثر الآراء احتمالا فى ضوء الأدلة الحاضرة . ومن أعظم الأيادى التى منحها العلم هؤلاء الذين يفهمون روحه أنه يجعل في طوقهم أن يعيشوا دون الاعتماد على اليقين الذاتى الخداع ؛ وهذا هو السبب فى أن العلم لا يرضى عن الاضطهاد .

إن الرغبة فى المذاهب التعصبية من أكبر شرور زماننا الذى نعيش فيه ؛ ولقد مرت عصور مصابة بنفس المرض . وإن أواخر الامبراطورية الرومانية، والقرن السادس عشر ، من أوضح الأمثلة على ذلك . وحين بدأت روما فى الاضمحلال، وحين تسبب برابرة القرن الثالث بغاراتهم فى خلق الخوف والفقر ، بدأ الناس ينظرون إلى السلامة فى عالم آخر . وقد وجده أفلوطين فى عالم أفلاطون الأبدى ، ووجده أتباع مثرا فى الفردوس الشمسى ؛ ووجده المسيحيون فى السماوات . ولقد

لانتصر المسيحيون فى الغالب لأن يقينهم المذهبى كان أكبر من غيره . فلما انتصروا بدأ بعضهم يضطهد بعضا على المخالفات الضئيلة للعقيدة ، ولم يكد يكون عندهم من الوقت مايسمح لهم بملاحظة البرابرة المغيرين ، إلا أن يلاحظوا أنهم كانوا آريين ، وهم عند القدماء يشبهون أتباع تروتسكى . إن الحماسة الدينية التى كانت فى ذلك العهد كانت نتيجة الخوف واليأس ، كالحماسة الدينية الحاضرة القائلة : «إما المسيحيون، وإما الشيوعيون» . وهذا رد فعل غير عقلى للشعور بالخطر ، يميل إلى أن يتسبب فيما يخاف حدوثه . إن الخوف من القنبلة الهيدروجينية يسبب التعصب ، ومن أكثر الأشياء احتمالا أن يؤدى التعصب إلى الاستعمال الفعلى للقنبلة الهيدروجينية . قد يأتى الخلاص من السماء ، إذا كان المتعصبون على حق ، ولكن الخلاص الأرضى لن يأتى عن هذا الطريق .

وسوف أقول كلمات قليلة عن الصلة بين الحب وبين الأمانة العقلية ، وهناك اتجاهات مختلفة عديدة يمكن أن يتخذها المرء حيال الآلام التى لا تحتمل . فإذا كنت سادياً يحب تعذيب الآخرين، فربما وجدت المسرة فى هذه الآلام ، وإذا كنت ممن لا يهتمون، فربما تجاهلتها ،وإذا كنت عاطفيا، فربما أقنعت نفسك بأنها ليست فظيعة بالقدر الذى يبدو منها ، ولكنك إذا كنت تحس بالرأفة الأصيلة ، فسوف تحاول أن تدرك الشر حقيقة من أجل القضاء عليه . سيقول العاطفى إنك تتبع العقل ببرود ، وإنك لو كنت فى الحقيقة تهتم بآلام الآخرين لما استطعت أن تكون متمسكا بموقفك العلمى حيالهم إلى هذا الحد . وسيدعى العاطفى أن له قلبا أرق من قلبك ، وسيبدى ذلك بأن يدع آلام الآخرين تستمر ، ويرى ذلك خيرا من أن يقاسيها بنفسه .

وهناك سيدة ذات قلب عطوف فى تمثيلية لجلبرت وسوليفان تقول :

سمعت من يقول ذات يوم   إن يُقتَل المجرم بين القوم

فإن يخف من السلاح يلمع   فلن يحس بالسلاح يقطع
وإنما يُسلمه إلى العدم   بدون أن يشعر منه بالألم
فإن أصدق يا أخى ما قيلا   فأنت أسعد الورى قتيلا

وكذلك قد يدعى هؤلاء الذين استسلموا فى ميونيخ : (١) أن النازيين لا يحبون المذابح الجماعية ، (٢) وأن اليهود يستلذون أن يذبحهم الناس . ويقول المروجون للشيوعية fellow travellers : (١) إنه لا يوجد عمل جبرى فى روسيا (٢) وأن الروس لا يعجبهم شىء كما يعجبهم أن يموتوا من التعب فى الشتاء القطبى . ومثل هؤلاء الناس ليسوا « عقليين باردين » .

وأكبر الظواهر النفسية فى أيامنا هذه إثارة للقلق ، وصلاحية لأن تكون موضوع مناظرة حول ضرورة وجود مذهب ما مهما كان مجافيا للعقل هى ظاهرة تمنى الموت . يعلم كل امرىء كيف يصبح كل مجتمع بدائى دُفع فجأة إلى الاتصال بالرجل الأبيض غير عابىء بشىء ، ويموت أخيرا لمجرد عدم الرغبة فى الحياة . وتسبب المخاطر الجديدة التى توجد فى غرب أوربا شيئا من نفس القبيل . إن مجابهة الحقائق مؤلمة ، والمخرج منها غير بيِّن . ويحل الشوق إلى الماضى محل النشاط المتجه إلى المستقبل ، وثمة ميل إلى هز الأكتاف بدون اهتمام ثم القول : « إذا كنا سنفنى بالقنابل الهيدروجينية فسيوفر علينا ذلك كثيرا من الآلام» . وهذا رد فعل متشعب متهافت كالذى كان عند الرومان فى مواجهة البرابرة . إن ذلك لا بد أن يقابل بالشجاعة، والأمل، والتفاؤل المبنى على تفكير . فدعنا نر ما هنالك من أسس ينبنى عليها الأمل .

أولا : لا شك عندى، إذا صرفت النظر مؤقتا عن خطر الحرب ، فى أن متوسط مستوى السعادة فى بريطانيا وأمريكا أعلا اليوم منه فى أى مجتمع سابق

فى أى زمن ، ويستمر التحسن فوق ذلك كلما انعدمت الحرب ، فعندنا إذا شىء هام يجب أن نحافظ عليه .

وهناك أشياء عصرُنا بحاجة إليها ، وأشياء أخرى يجب تجنبها ، فعصرنا بحاجة إلى الرأفة ، وتمنى السعادة للجنس البشرى ، وهو بحاجة إلى رغبة فى المعرفة ، وإصرار عليها ، وإلى تجنب الخرافات اللذيذة . وهو فوق كل أولئك بحاجة إلى أمل شجاع ، واندفاع إلى الإبداع . أما الأشياء التى يجب تجنبها ، والتى وقفت به على شفا الكارثة ، فهى القسوة ، والحسد ، والطمع ، والتنافس ، والبحث عن اليقين الذاتى غير المبنى على العقل ، ومايسميه اتباع فرويد تمنى الموت .

وأساس المسألة شىء بسيط جدا ، وعتيق جدا بسيط لدرجة أننى أخجل من ذكره ، للخوف من الابتسامة الساخرة التى سوف يحيي بها المستهزئون العقلاء كلماتى . إن الشىء الذى أقصده — وأرجو أن تعذرونى لذكره — هو الحب — الحب المسيحى ، أو الشفقة . فإذا أحسست بهذا ، فعندك به دافع للوجود ، ودليل للعمل ، وسبب للشجاعة ، وضرورة ملحة للأمانة العقلية . إذا أحسست بهذا فعندك كل ما يتطلبه أى شخص من الدّين . ومع أنك قد لا تجد السعادة ، سوف لا تشعر أبدا باليأس العميق الذى يحس به هؤلاء الذين تفتقد حياتهم الهدف ، وتخلو من الغاية ، لأن هناك دائما شيئا تستطيع أن تفعله لتخفف به من البؤس الإنسانى فى كثرته المخيفة .

إن الذى أريد أن أؤكده هنا هو أن نوع البؤس الخامل الشائع اليوم لا يستند إلى أساس عقلى . إن الجنس البشرى فى موقف الرجل الذى يتسلق من وهدة صعبة خطرة إلى قمة عندها هضبة ذات مروج جبلية لذيذة ، ومع كل خطوة فى تسلقه يصبح سقوطه إذا سقط أكثر خطورة ، ويزداد كل خطوة ملله ، وتزداد صعوبة الصعود . وتبقى فى النهاية خطوة واحدة ، ولكن المتسلق لا يعرف هذا لأنه لا يستطيع

أن يرى وراء الصخور الناتئة عند رأسه . وقد تكامل إرهاقه حتى لم يعد يطلب شيئا إلا أن يستريح ، فإذا أرخى قبضته فسيجد الراحة فى الموت . ثم يناديه الأمل : « ابذل مجهودا آخر ، فربما كان هذا آخر مجهود مطلوب » وتجيب السخرية « أيها الأبله . ألم تستمع إلى الأمل كل هذه المدة ؟ أنظر إلى أين قادك ! ويقول التفاؤل : « ما دامت الحياة باقية فالأمل موجود » . ويحشرج التشاؤم : « ما دامت الحياة باقية فالألم موجود » . فهل يبذل المتسلق المرهق مجهوداً آخر ، أم هل يرخى قبضته فيهوى إلى الوهدة ؟ سيعلم الأحياء منا بعد سنوات جواب هذا السؤال .

فإذا تركنا المجاز وجدنا الموقف الحاضر كما يلى : إن العلم يمنح الآن إمكانية الرخاء للجنس البشرى أكثر مما نعلمه فى أى وقت مضى . ولكنه يمنح هذا بشروط معينة : هى إبطال الحرب ، والمساواة فى توزيع القوة النهائية ، وتحديد نمو السكان ؛ وكل ذلك أقرب إلى الإمكان مما كان من قبل . فنمو السكان فى بلاد الغرب الصناعية يكاد أن يصل إلى درجة الصفر ، وسيكون لنفس الأسباب نفس النتائج فى البلاد الأخرى كلما تقدمت ، إلا إذا تدخل الدكتاتوريون والمبشرون . إن التساوى فى توزيع القوة النهائية ، سواء أكانت اقتصادية أم سياسية ، يكاد أن يكون معمولا به فى بريطانيا ، وتتجه البلاد الديموقراطية الأخرى بسرعة إليه . أما تحريم الحرب ، فربما بدا فى صورة التناقض الوهمى أن نقول : إننا أقرب إليه اليوم مما كنا فى أى زمن مضى ، ولكننى مقتنع أن ذلك صحيح . وسأشرح السبب فى اقتناعى هذا .

كان هناك فى الماضى دول كثيرة ذات سيادة يمكن لأية اثنتين منها فى أية لحظة أن تتحاربا . وكان من المقدر للمحاولات التى على غرار عصبة الأمم أن تخفق ؛ لأنه حين كان ينشب الخلاف ، كان المتنازعان ريان مما يتنافى مع الكرامة أن يقبلا التحكيم الخارجى ، وكان المحايدون من الكسل بحيث لم يفرضوا التحكيم . أما الآن ، فليس هناك إلا دولتان ذواتا سيادة هما روسيا (ومعها أتباع) ،

والولايات المتحدة (ومعها أتباع كذلك) . فإذا تغلب أى منهما ، إما بالنصر فى الحرب ، أو بالتفوق العسكرى ، استطاعت الدولة المتغلبة أن تنشىء سلطة وحيدة على العالم كله ، ومن ثم تجعل الحروب فى المستقبل مستحيلة . وستبنى هذه السلطة أولا فى بعض الأقاليم على القوة ، ولكن إذا كانت الدول الغربية هى المسيطرة ، فسيحل الرضى سريعا محل القوة . وعندما يتم هذا تزول أكثر المشاكل العالمية صعوبة ، ويصبح العلم نافعا نفعا تاما .

وليس عندى من الأسباب ما يدعونى إلى الخوف من أن يكون هذا النظام غير مستقر عندما ينشأ . فالأسبـــاب الرئيسية لانتشار العنف هى حب السلطة ، والتنافس ، والكراهية ، والخوف ؛ وسوف لا يكون لحب السلطة متنفس قوى حين تتقلص كل القوى العسكرية الجدية فى صورة جيش عالمى . وسينظم التنافس تنظيما دقيقا بحكم القانون ، وستحد منه السيطرة الحكومية . أما الخوف بشكله الحاد الذى نعرفه ، فسيختفى حين لا تعود الحرب فى الحسبان . وسيبقى بعد ذلك الكرهُ والحقدُ ، ولهذين جذور راسخة فى الطبيعة الإنسانية . فكلنا نصدّق فى الحال أية إشاعة تحط من شأن جيراننا ، مهما كانت الأدلة عليها ضئيلة . وكان الكثيرون من الناس بعد الحرب العالمية الأولى يكرهون ألمانيا إلى درجة أنهم لم يعودوا يعتقدون أن الضرر يلحقهم نتيجة لتطرفهم فى إيذاء الألمان ، ويرى المرء فى الكنجرس شيوع التردد فى الاعتراف بأن المحافظة على النفس تتطلب منح العون لأوربا الغربية . إن أمريكا ترغب فى أن تبيع دون أن تشترى ، ولكنها تجد أن هذا فى الغالب معناه أن تعطى ، لا أن تبيع . والفائدة التى يجنيها المعانون يحس الكثيرون بها وهم لا يكادون يتحملونها . وهذا الانتشار الواقع للحقد من أخس الأشياء فى الطبيعة الإنسانيـة ، ويجب أن يخفف إذا أريد للحكومة العالمية أن تستقر .

وأنا مقتنع بأنه يمكن أن يخفف ، وبسرعة عظيمة . فإذا أصبح السلام مضمونا فسيزداد الرخاء المادى بسرعة فائقة ، وهذا أصلح من أى شىء آخر لإيجاد مزاج من الإحساسات الرقيقة . تأمل النقص العظيم فى المعاملة القاسية فى بريطانيا فى عهد فيكتوريا ، فقد كان ذلك يرجع إلى الازدياد السريع فى الثروة عند كل الطبقات . وأظن أننا نستطيع أن نأمل فى أثر مشابه فى العالم كله ، إذا ازدادت الثروة نتيجة لإبطال الحروب . ويؤمل الكثير كذلك من وراء تغير الدعاية . فالدعاية الوطنية فى أى شكل عنيف ستصبح مخالفة للقانون، وسوف لا يتعلم الأطفال فى المدرسة كراهية الأمم الأجنبية ، ولا احتقارها . ويستطيع التنبيه إلى شرور الماضى وحسنات الحاضر أن يفعل الباقى . وأنا مقتنع أنه لن يتمنى العودة إلى الخوف من التحلل بالإشعاع الذرى إلا عدد قليل من المرضى النفسانيين .

ما الذى يقف فى طريق هذا التطور ؟ إنه لا العقبات الفيزيقية ولا الفنية ، ولكنها الإحساسات الشريرة فى عقول الناس ؛ كالشك ، والخوف، وشهوة السلطة، والكراهية ،والتعصب . وسوف لا أنكر أن هذه الإحساسات الشريرة أكثر تسلطا فى الشرق مما هى فى الغرب ،ولكنها لا شك فى وجودها فى الغرب كذلك . ويستطيع الجنس البشرى بين وقت وآخر أن يبدأ التقدم السريع إلى عالم أفضل ، إذا توافر له شرط واحد ، هو انعدام الشك المتبادل بين الشرق والغرب ،ولست أعلم ما يمكن أن يفعل لتوفير هذا الشرط . وقد بدت كل الاقتراحات التى رأيتها فى هذا الاتجاه سخيفة التفكير . وكل ما يمكن عمله على أى حال هو أن نمنع الانفجار بأية طريقة ، ونأمل أن يأتى المستقبل بالحكمة . ولا بد أن يكون المستقبل القريب إما خيرا أو شرا من الماضى ، وذلك ما ستقرره السنوات القليلة القادمة .

الفصل السابع

هل فى طوق المجتمع العلمى أن يستقر ؟[1]

آمل فى هذا الفصل الأخير أن أنظر فى مسألة علمية خالصة : هى السؤال عما إذا كان المجتمع الذى يتصف فكره ومنهجه بأنهما علميان يستطيع البقاء أزمانا طويلة كما بقيت مصر القديمة مثلا ، أو أنه يشتمل فى تكوينه بالضرورة على قوى لا بد أن تؤدى إما إلى تحلله وإما إلى انفجاره .

وسأبدأ بسوق بعض الإيضاحات للمسألة التى أهتم بها . إنى أسمى المجتمع « علميا » بالقدر الذى تؤثر فيه معارفه العلمية ، والمناهج المبنية على هذه المعارف ، فى حياته اليومية ، وفى اقتصاده ونظمه السياسية ؛ وهذه بالطبع مسألة اختلاف فى الدرجة . لأنها فى مراحله الأولى لا تكاد تكون لها آثار اجتماعية ، إلا على قلة من العلماء الذين يهتمون بها ، ولكنها فى الماضى القريب بدأت تغير الحياة العادية تغييرا متزايد السرعة .

وأنا أستعمل كلمة « مستقر » كما تستعمل فى الطبيعة . فالخذروف مستقر أو ثابت ما دام يدور بسرعة أكبر من معدل معين ، ثم يصير غير مستقر ، ويسقط . والذرة التى لا تشع مستقرة ، حتى يمسك بها أحد علماء الذرة . والنجم مستقر

---

(۱) لقد قرأت هذا الفصل مرة فى الجمعية الطبية الملكية فى لندن فى ۲۹ نوفمبر سنة ١٩٤٩ باعتباره « محاضرة روبرت لويد » .

لملايين من السنين ، ثم ينفجر يوما ما ،وآمل بهذا المعنى أن أسأل عما إذا كان المجتمع الذى نـكوّنه نحن مجتمعا مستقرا .

وأريد أن أؤكد أن السؤال الذى أسأله حقيقى خالص . وأنا لا أنظر فيما إذا كان من الخير أن يكون هناك استقرار أو عدم استقرار ، فهذه مسألة قيم ،وتقع خارج نطاق النقاش العلمى . وأنا أسأل فى الحقيقة عما إذا كان من المحتمل أو غير المحتمل أن يستمر المجتمع مع اتصافه بأنه علمى . فإذا استمر ، فلا بد أن يتزايد اصطباغه بالصبغة العلمية يوما بعد يوم ؛ لأن المعرفة المتجددة ستتجمع . وإذا لم يستمر ، فلا بد أن يكون ثمة إما تحلل تدريجى ، كالذى يحدث من فقد الشمس لحرارتها بالإشعاع ، وإما تحول عنيف ، كتلك التغيرات التى تسبب ظهور النجوم الجديدة فى السماوات **Novae** ،ويبدو الأول فى صورة الإرهاق ،والثانى فى صورة الثورات أو الحروب .

والأمر هنا تأملىّ للغاية ؛كما يبدو حين ننظر إلى مقياس الزمن . يخبرنا علماء الفلك أن من المحتمل أن تظل الأرض آهلة لملايين كثيرة من السنين القادمة . وأن الإنسان قد عاش على هذه الأرض مليونا من السنين . فإذا سارت الأمور سيرا طبيعيا ، فلا بد أن يكون المستقبل أطول بكثير من الماضى .

ونحن على وجه العموم فى وسط سباق بين القدرة الإنسانية على الوسائل ، وبين الطيش الإنسانى بالنسبة للغايات ، فإذا أعطيت الزيادة فى القدرة على الوسائل ما يكفيها من الطيش بالنسبة للغايات ، اتجهت هذه الزيادة إلى الشر . وإن النوع الإنسانى قد كُتِبَ له البقاء إلى هذه اللحظة بسبب جهله وعدم كفاءته ، ولـكنه إذا أعطى العلم والـكفاءة ،مضافين إلى الطيش ،فلن يكون هناك أية ثقة فى البقاء . فالمعرفة قوة ، ولـكنها قوة تتجه إلى الشر بقدر ما تتجه إلى الخير ، ويتبع هذا أن الناس

إذا لم يزيدوا من حكمتهم بالقدر الذى يزيدونه فى علمهم ، فسيضيف نموُّ المعرفة أسفاً إلى أسفهم .

اسباب عدم الاستقرار

إن الأسباب الممكنة لعدم الاستقرار يمكن أن توضع تحت عنوانات مثل طبيعية — حيوية — نفسية ، وسأبدأ بالأسباب الطبيعية .

الطبيعية

إن الصناعة والزراعة كلتيهما تجريان باطراد متزايد على طرق من شأنها أن تُضَيِّع ما فى العالم من ثروة طبيعية . تلك كانت دائما حال الزراعة منذ أن فلح الإنسان الأرض ، إلا فى أماكن معينة كوادى النيل ، حيث تسود هناك ظروف استثنائية . وحين كان السكّان، موزعين كان الناس يتحولون عن حقولهم إلى حقول أخرى ، حين تصبح الأولى ناقصة الخصوبة . ثم كشف الإنسان عن إمكان استعمال الجثث فى التسميد ، ومن ثم شاعت التضحية بالأرواح الإنسانية ، فكان لها ميزة مزدوجة ؛ إذ زادت من كمية المحصول ، وقللت من عدد الأفواه الطاعمة ؛ ومع هذا أصبحت هذه الطريقة مغضوبا عليها ، فحلت الحرب محلها . ولم تكن الحرب كافية لتحطيم الحياة الإنسانية ، حتى تمنع الآلام عن الباقين بعد انتهائها ، فاستمر إرهاق التربة وتزايد ، ولم يزل يتزايد حتى يومنا هذا ؛ وأخيرا جذب إنشاء وعاء القمامة Dust Bowl فى الولايات المتحدة الانتباه إلى المشكلة . ويعلم الناس الآن ما يجب عليهم عمله ، إذا أرادوا ألا يصلوا بإمداد العالم من الطعام إلى حافة الكارثة . أما ما إذا كان ما يجب عمله سيحدث أولا يحدث فذلك أمر مشكوك فيه . إن طلب الطعام دائم ، والربح الحاضر كبير ، إلى درجة أنه لن تستطيع إلا حكومة قوية ذكية

أن تفرض الاجراءات المطلوبة : والكثير من أجزاء العالم تعوزه الحكومة التى تتصف بالقوة والذكاء كليهما . وأنا أتجاهل هنا مؤقتا مشكلة السكان التى سأعالجها بعد قليل .

وإن المواد الغُفْل بمرور السنين ستأتى بنفس المشكلة الخطيرة التى جاءت بها الزراعة ؛ لقد أُنتج القصدير فى كورنوول منذ أيام الفينيقيين حتى عهد قريب جدا ، أما الآن فقد انتهى القصدير من كورنوول . ويُطَمْئِن العالم نفسه بتنهى السهولة بملاحظة وجود القصدير فى بلاد الملايو، وينسى أن ذلك كذلك سينتهى عما قريب، وكل القصدير الذى يسهل الحصول عليه سينتهى إن قريبا أو بعيدا ، ويصدق ذلك على بقية المواد الخام . وأوضح ما فى هذه المشكلة فى الوقت الحاضر يتعلق بالنفط ؛ فلا تستطيع أمة تستخدم المناهج الحاضرة أن تتقدم فى الصناعة ، أو تحمى نفسها فى الحرب بدون النفط . وإن ما فى العالم منه ليستنبط بسرعة فائقة ،وسيتم استهلاكه بسرعة أكبر فى الحروب المنتظرة ، للسيطرة على ما يبقى منه فى باطن الأرض . سيقول لى قائل بالطبع : إن الطاقة الذرية ستحل محل النفط باعتبارها منبعا للقوة ، لكن ما الذى سوف يحدث حين يُسْتَنْفَدُ كل الموجود من الأورانيوم والثوريوم فى تقتيل الناس والأسماك ؟

الحقيقة التى لا جدال فيها هى أن الصناعة ، والزراعة التى تستخدم المخصبات الصناعية تعتمدان على مادة لا يمكن تعويضها تجعلانها مصدر قوتهما. وسوف يكشف العلم دون شك عن منابع أخرى للقوة كلما اقتضت الحاجة، ولكن ذلك سيكون معناه ازدياداً تدريجيا فى إنتاج قدر معين من الأرض ، والعمل، فى لحظة معينة ؛ ولن يكون هذا على أى حال إلا وسيلة مؤقتة . لقد ظل العالم ينفق من رأس ماله ، وما دام ينوى أن يظل صناعيا فسيستمر فيما هو عليه . وهذا منبع حتمى من منابع عدم الاستقرار فى المجتمع ، وإن بعد شبحه فى غيوب المستقبل .

الحيوية

وأنا أصل الآن إلى الناحية الحيوية (البيولوجية) من هذه المسألة . فإذا قدرنا النجاح الحيوى للأنواع بأعدادها ، فلا بدّ أن نعترف بأن الانسان قد نجح نجاحا ملحوظا جدا . ولا بد أن يكون الإنسان فى أيامه الأولى قد كان نوعا نادراً . وميزتاه الرئيسيتان : وهما قدرته على استعمال يديه فى تصريف الآلات ، وقدرته على أن ينقل تجربته واختراعه بوساطة اللغة ميزتان تقـوّيان لديه بالتدريج فى مبدأ الأمر ،كان هناك قليل من الآلات ، وقليل من المعرفة التى تنقل ؛ ولا يعلم إنسان فوق ذلك عند أى حد ظهرت اللغة . ومهما كان ذلك فقد تمت خطوات تقدمية ثلاث تسببت فى ازدياد سكان الأرض : أولاها استئناس الحيوانات التى أصبحت أليفة ، وثانيتها استخدام الزراعة ، وثالثتها الثورة الصناعية . ولقد أصبح الناس إلى حد كبير بواسطة هذه الخطوات التقدمية الثلاث أكثر عددا من أى نوع آخر من أنواع الوحوش الكبيرة . وترجع زيادة عدد الغنم والبقر إلى العناية الإنسانية . وليس للحيوانات الثديية الكبرى أية فرصة فى النجاح باعتبارها منافسة للإنسان فى التكاثر ،كما يظهر ذلك من انقراض الجواميس انقراضا ملحوظا .

إننى مع الهلع أقدم نظريتى الآتية : لن يستطيع الطب إلا فى فترات قصيرة أن يزيد من سكان العالم . ولا شك أن الطب فى القرن الرابع عشر لو عرف كيف يقاوم الموت الأسود ، لكان سكان أوربا فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر أكثر مما كانوا حينئذ . ولكن هذا العجز عوضته الزيادة الطبيعية إلى المستوى الذى قال به مالثوس Malthus ، وتفعل الإرساليات الطبية الأوربية والأمريكية الكثير فى الصين ، لتحد من نسبة وفيات الأطفال ، ونتيجة ذلك أن يموت عدد أكبر من الأطفال موتا أليما بالقحط ، فى الخامسة أو السادسة من عمرهم .

ونفع ذلك للجنس البشرى محل شك . ويعتمد السكان بعض الوقت على الموجود من الطعام لا غير ، إلا فى الأماكن التى تهبط فيها نسبة المواليد . وقد ظل هبوط نسبة المواليد فى العالم الغربى حتى الوقت الحاضر يشير إلى الخطأ فى مذهب مالثوس، ولكن مذهبه كان صحيحا فى العالم كله حتى وقت قريب، ولا يزال صحيحا فى البلاد الحافلة بالسكان فى الشرق .

ما الذى فعله العلم ليزيد من عدد السكان ؟ لقد زاد أولا من إنتاج الفدان عن طريق استعمال الآلات ، والأسمدة ،وتحسين البذور، كما زاد من غلة الإنتاج فى الساعة من ساعات العمل .وذلك أثر مباشر ؛ ولكن هناك أثرا آخر ربما كان أكبر أهمية فى هذه اللحظة على الأقل ، فقد أصبح من الممكن مع التحسن فى وسائل النقل أن ينتج إقليم معين فائضا من الطعام، على حين ينتج الآخر فائضا من الإنتاجات الصناعية، أو المواد الغفل ، ويجعل هذا من الممكن بالنسبة لأى إقليم ، كما هو الحال فى بلادنا ،أن يضم عددا من السكان أكبر مما تستطيع موارد الطعام فيه أن تتحمله ، فإذا فرضنا حرية الحركة للأشخاص والسلع ، لم يعد من الضرورى أن ينتج العالم فى عمومه إلا قدرا من الطعام يكفى سكان العالم كله؛ ويقتضى ذلك أن يكون عند الأقاليم التى يقل فيها إنتاج الطعام ما تقدمه للأقاليم التى عندها فائض من الطعام ،فتقبله هذه فى مقابل هذا الطعام . ولكن هذه الحالة يمكن أن تمر بأزمة ؛ فلم يكن للفلاحين فى روسيا بعد الحرب العالمية الأولى من الطعام إلا ما يكفيهم هم أنفسهم، ولم يسمحوا ببيع أى قدر منه للحصول على منتجات المدن ، ولم يبق سكان المدن على قيد الحياة فى ذلك الوقت، ولا فى القحط الذى جاء بعد عام ١٩٣٠، إلا مع استخدام القوات المسلحة استخداما حقيقيا . وقد ماتت ملايين الفلاحين فى القحط نتيجة لهذا التدخل من الحكومة : ولو ظلت الحكومة محايدة لمات سكان المدن .

ويشير هذا الاعتبار إلى نتيجة يبدو لى أننا نتجاهلها فى أغلب الأحوال ؛

فالصناعة رفاهية إلا حين تتجه اتجاها مباشرا إلى معونة الزراعة، وتصبح منتجاتها في أوقات الشدة عرضة للكساد ، ولا يستطيع الإبقاء على حياة عمال الصناعة إلا العمل العسكرى ضد منتجى الطعام ، وذلك إذا ترك الكثير جدا من هؤلاء فى قبضة الموت ،فإذا تكررت أيام الشدة، فلا بد أن نستنبط أن الصناعة ستضمحل ويبطل التصنيع الذى كان من خصائص المائة سنة والخمسين الأخيرة .

ولكنك قد تقول إن أيام الشدة استثنائية ،ويمكن علاجها بوسائل استثنائية . ولقد كان هذا صحيحا خلال شهر العسل التى استمتعت به الصناعة، وسوف لا يظل صحيحا إلا إذ تناقص التزايد فى السكان تناقصا عظيما . إن سكان العالم فى الوقت الحاضر يتزايدون بنسبة ثمانية وخمسين ألفا فى اليوم الواحد ، ولم يكن للحرب حتى يومنا هذا أى أثر كبير على هذه الزيادة التى استمرت أثناء كل من الحربين العالميتين . ولقد كان هذا التزايد حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر أسرع فى البلاد المتأخرة ، ولكنه يكاد ينحصر الآن فى البلاد الفقيرة . وتعتبر الهند والصين بين هذه البلاد أهمها عدديا، فى حين تعتبر روسيا أهمها من الناحية السياسية . ولكننى أريد الآن أن أقتصر قدر الطاقة على الاعتبارات الحيوية ، وأن أترك السياسة العالمية جانبا.

ما النتيجة الحتمية لعدم الحد من تزايد السكان ؟ إنه لا بد حينئذ من هبوط عام فى مستوى المعيشة فيما يُعتبر الآن بلادا غنية، ولا بد أن يتناسب مع هذا الهبوط نقص عظيم فى طلب المنتجات الصناعية ؛ وستضطر « ديترويت » أن تتوقف عن صنع السيارات الخاصة،وأن تتخصص فى صنع عربات النقل ، وستصبح الكتب ، وآلات البيانو، والساعات،ونحوها كماليات نادرة يحظى بها قلة من صفوة الأقوياء ، وعلى الأخص الذين يسيطرون على الجيش والشرطة ، وسيكون هناك توحد فى البؤس فى النهاية ، ويصدق قانون مالثوس دون قيد . وحين يصير العالم موحدا

من الناحية الفنية، يزداد السكان حين تنمو محاصيل العالم ، وينقصون بالجوع كلما ألمَّ بهم القحط ، ويصبح معظم المراكز المدنية والصناعية فى الوقت الحاضر مهجورا ، ويتحول سكانه إذا بقوا على قيد الحياة إلى مشقات الفلاحة التى كان أسلافهم يقاسونها فى العصور الوسطى ، ويصل العالم بهذا إلى مرحلة استقرار جديدة ، ولكن عنها هو كل ما يعطى الحياة الإنسانية قيمة خاصة .

هل مجرد الأعداد من الأهمية بحيث نسمح للأمور من أجلها أن تصير إلى هذه النهاية ؟ بالطبع لا ! فما الذى نستطيع أن نفعله إذاً ؟ الجواب واضح ، فيما عدا بعض العواطف المتأصلة . يجب أن تشجع الأمم التى يتزايد سكانها بسرعة على أن تتوخى الطرق التى حُدّ بها من نمو السكان فى الغرب . إن الدعاية الثقافية مع عون الحكومة يمكن أن تصل إلى نتائج فى ظرف جيل واحد . ولكن هناك قوتين عظيمتين تعارضان هذه السياسة : إحداها الدّين ، والأخرى القومية . وأظن أنه واجب على كل هؤلاء الذين يستطيعون مجابهة الحقائق أن يعلموا ، وأن يعلنوا ، أن الوقوف ضد تحديد النسل ، إذا قدر له أن ينجح ، فلا بد أن يوقع بالجنس البشرى فى أشد أنواع البؤس والانحطاط فى ظرف الخمسين سنة القادمة أو نحوها .

ولست أدعى أن تحديد النسل هو الطريق الوحيد التى تقف بعدد السكان دون الزيادة ؛ فثمة وسائل أخرى لا بد أن يستنتج المرء أن خصوم تحديد النسل يفضلونها . إن الحرب كما أشرت إلى ذلك من قبل قد خيبت الآمال من هذه الناحية ، ولكن حرب الجراثيم ربما تكون أكبر أثراً . فلو أمكن أن ينتشر الموت الأسود خلال العالم مرة كل جيل ، لاستطاع الناجون أن يتوالدوا بلا قيد دون أن يخافوا أن يمتلىء العالم . ولن يكون فى ذلك شىء يجرح ضمير الأتقياء ، أو يحد من طموح القومية ، وقد تصبح الأمور غير سارة ، ولكن أى ضير فى هذا ؟ إن صفوة المفكرين لا يهتمون بالسعادة ، وعلى الأخص سعادة الآخرين .

ومع هذا أرانى خرجت عن موضوع الاستقرار ، ولابد لى أن أعود إليه .

هناك طرق ثلاث للوصول إلى خلق مجتمع مستقر بالنسبة لمسألة السكان : أولاها تحديد النسل ،وثانيتها قتل الأطفال ، أو الحروب المدمرة ، وثالثتها البؤس العام ،إلا بالنسبة للأقلية القوية . وقد وضعت كل هذه الطرق موضع التنفيذ : فقد نفذ أولاها سكان أو ستراليا الأصليون ، ونفذ الثانية قبائل الأزتك فى المكسيك، والأسبارطيون ، وحكام جمهورية أفلاطون ، أما الثالثة فينفذها العالم كما يريده بعض الوطنيين الغربيين أن يكون،وتنفذهاروسيا السوفيتية (لا ينبغى أن يُظَنّ أن الهنود والصينيين يحبون الجوع؛ بل إنهم يتحملونه لأن تسلح الغرب قوى بالنسبة لهم .) ولا يخلو من القسوة المتطرفة وبؤس معظم الآدميين من هذه الوسائل إلا تحديد النسل : وطالما لم توجد حكومة عالمية ، فلا بد أن يوجد التنافس على القوة بين الأمم المختلفة ، وما دام ازدياد السكان يأتى بخطر القحط ، فستصبح القوة القوميةهى الطريقة الوحيدة لتجنب القحط ، بلا شك . ولهذا سيكون هناك تكتلات تتجمع فيها الأمم الجائعة معاً ضد الأمم الشبعة ، وهذا هوسبب تغلب الشيوعية فى الصين .

وتدل هذه الاعتبارات على أن المجتمع العالمى لا يمكن أن يكون مستقراً إلا إذا وجدت حكومة عالمية .

وربما قيل على أى حال إن هذا استنتاج متسرع . وكل الذى ينبنى مباشرة على ما قيل هو أنه لابد أن توجد الحروب، ما لم توجد حكومة عالمية تفرض تحديد النسل ، وستكون العقوبة على الهزيمة فى تلك الحروب انتشار الموت من الجوع ، وتلك بالضبط هى حالة العالم الحاضرة . وقد يرى البعض أنه ليس هناك من سبب لعدم استمرار ذلك قرونا عديدة ، ولكننى شخصيا لا أرى استمراره ممكنا ، لأن الحربين العظميين اللتين مرتا بنا قد هبطتا بمستوى المدنية فى أجزاء كثيرة من العالم ، ولا شك أن الحرب الآتية ستوغل أكثر من ذلك فى هذا الهبوط. وواضح

أن مستوى المدنية لا بد أن يهبط باستمرار ، حتى تبطل الحرب العلمية ، أى حتى يختفى العلم ، إلا إذا انتصرت دولة ، أو مجموعة من الدول ، فأنشأت حكومة عالمية تحتكر إنشاء القوة المسلحة . وإذا انتكس الإنسان **Homo sapiens** إلى استخدام القوس والسهم ، فربما التقط أنفاسه مرة أخرى ، وبدأ فى إعادة تسلق هذا الطريق الممل ، تسلقا فاشلا كالذى مضى .

إن الحاجة إلى حكومة عالمية لحاجة تامة الوضوح بحسب مبادىء داروين ، إذا قدر لمسألة السكان أن تحل حلا إنسانيا . فإذا افترضنا جماعتين يتزايد السكان فى إحداها ، على حين يظل عددهم ثابتا فى الأخرى ، فإذا تساوت الجماعتان فى بقية الظروف ، فستصبح المتزايدة العدد أقوى من الأخرى فى الوقت المناسب . وبعد الانتصار على الجماعة الأخرى تنتقص من إمدادها بالطعام ، فيموت الكثيرون منها[1] ، ولهذا سيظل ثمة انتصار متجدد مستمر للأمم المخصبة فى التناسل ؛ من وجهة النظر العالمية إخصابا لا مبرر له ، ذلك هو الشكل الجديد للتنازع القديم على البقاء ؛ فإذا أعطيت له قدرة علمية على التدمير ، فلا يمكن للعالم الذى يسمح باستمرار هذا التنازع أن يكون مستقرا .

النفسية

إن الظروف النفسية للاستقرار فى المجتمع العلمى فى نظرى هامة بقدر أهمية الظروف الطبيعية والحيوية ، ولكنها أصعب فى مناقشتها ؛ لأن علم النفس أقل تقدما من الطبيعة وعلم الحياة ، ومع هذا دعنا نحاول مناقشتها .

---

(١) قد يظن البعض أن هذه العبارة وحشية دون مبرر : ولكن لينظروا فى الصحف التى صدرت عام ١٩٤٦ ، وسيجدون جنبا إلى جنب خطابات غاضبة تقول ، إن العمال البريطانيين لا يمكن أن يكونوا أكفاء وهم يتناولون وجبات تشتمل كل منها على ٢٥٠٠ سعر حرارى ، ثم خطابات أخرى تقول إنه من غير المعقول أن نفرض أن الشخص الألمانى بحاجة إلى أكثر من ١٢٠٠ سعر حرارى فى الوجبة الواحدة .

إن علم النفس العقلى القديم كان يزعم أنك إذا أريت إنسانا بوضوح أن مسلكا معينا سيؤدى به إلى كارثة ، فمن المحتمل أن يتجنبه ، ولقد سلم كذلك بوجود رغبة فى الحياة ، إلا عند قلة ضئيلة ، ومن نتائج ظهور التحليل النفسى بصفة رئيسية أنه لم يعد لهذا الاعتقاد البنثامى (من أن الناس جميعا يسعون إلى ما فيه خيرهم بطريقة معقولة إلى حد ما) أىّ قبول عند الرأى العام المثقف ، كما كان له من قبل . ولكن قليلين من بين المهتمين بالسياسة قد طبقوا علم النفس فى إيضاح الظواهر الاجتماعية العامة ، وذلك ما أحاول فعله الآن مع كثير من التهيّب .

تأمل الاندفاع الحاضر إلى حرب عالمية ثالثة باعتباره مثالا هاما لإيضاح ذلك . فلنفرض أنك تناقش شخصا عاديا ، بشوشا ، لا يهتم بالسياسة ، عاقلا من وجهة النظر القانونية . إنك تذكر له ما يمكن أن يحدث بواسطة القنابل الذرية ، وتشرح له ما يعنيه احتلال روسيا لأوربا الغربية من الآلام ، وتدمير الثقافة ؛ وتبين له نتائج الفقر والتكتيل regimentation السيئة حتى فى حالة نصر سريع ؛ وستجده يعترف بكل هذا ، ولكنك مع هذا لا تحصل منه على النتيجة التى رجوت . إنك تجعل جسمه يقشعر ، ولكنه يفضّل الاستمتاع بهذا الإحساس . وتشير إلى الفوضى المتوقعة ، ولكنه يقول فى نفسه « على أى حال سوف لا اضطر والحالة هذه إلى الذهاب إلى مكتبى كل صباح » ، وتطنب فى الكلام عن عدد الضحايا من المدنيين ، ولكنه بينما يزعج على سطح عقله تهمس أعماقه : « ربما أترمّل حينئذ ، ولن يكون ذلك أمرا محزنا » وهكذا يسبب اشمئزازك بلجوئه إلى البطولية العتيقة فيقول :

اعصفى يا رياح وانطلق يا خراب

سوف يفنى الجميع تحت سوط العذاب

أو يقول أى كلام نثرى مشابه يُفَضَّل استعماله .

وثمة من الناحية النفسية مرضان مضادّان ، أصبحا من الشيوع بدرجة أن صارا عاملين هامين فى السياسة ؛ أحدهما الغضب ، والثانى الضجر . وأوضح مثال على الأول عقلية النازى ، وعلى الثانى عقلية الفرنسيين التى أضعفت مقاومتهم للألمان قبل الحرب ، وفى خلالها . وتوجد أشكال أقل حدة من هذين المرضين فى بلاد أخرى ، وهما فى نظرى مرتبطان بالتكتيك المتصل بالصناعة . إن الغضب يدفع الأمم إلى القيام بمشروعات من المؤكد أنها ضارة بها ، وإن الضجر يدفع الأمم إلى عدم الاحتراس من الشرور ، ويعزف بها عن القيام بأى مشروع يحتاج إلى عمل شاق . وينبع كلاهما من توعك عميق فى المزاج ، مسبب عن انعدام الانسجام بين الحالة النفسية ومجرى الحياة .

إن أحد أسباب هذا التوعك هو سرعة التغيّر فى الظروف المادية . فالهمج الذين يخضعون فجأة لقيود النظم الأوربيّة كثيرا ما يموتون بسبب العجز عن احتمال الحياة المختلفة كثيرا عما تعودوه . وحين كنت فى اليابان عام ١٩٢١ ، بدا لى أننى أحس أن فى الذين تكلمت إليهم ، وعلى وجوه الذين قابلتهم فى الطرقات توترا عصبيا من النوع الذى تنتج عنه الهستيريا ؛ وقد ظننت أن ذلك مرجعه إلى أن الرغبات اللاشعورية العميقة الجذور تعلقت باليابان القديمة ، على حين اتجهت الحياة الشعورية كلها عند سكان المدن إلى بذل الجهد لأن يصبحوا بقدر الإمكان مشابهين للأمريكيين . ولا بد لعدم الملاءمة بين اللاشعور وبين الشعور أن يتسبب فى خلق التواكل ، أو الغضب ، بحسب طاقة النشاط عند الشخص المعنى ؛ ويحدث نفس الشىء كلما وجد التصنيع السريع ، ولا بد أن يكون قد حدث بصورة شديدة فى روسيا .

ولكن حتى فى بلاد كبلادنا ، حيث نجد الصناعة قديمة العهد ، تحدث التغيرات بسرعة صعبة من الناحية النفسية . انظر إلى ما حدث فى حياتى أنا : كانت

التليفونات أيام طفولتى جديدة ونادرة جدا ،ولم أر فى زيارتى الأولى لأمريكاسيارة واحدة ، ولم أر الطائرةحتى صار عمرى تسعة وثلاثين عاما . إن الإذاعة والسينما قد جعلا حياة الشباب مختلفة اختلافا عميقا عما كان فى شبابى ، أما الحياة العامة ، فإننى حين بدأت أهتم بالسياسة ، كان جلاد ستون ودزرائيلى يواجه أحدهما الآخر بصلابة فيكتورية، وقد بدت الإمبراطورية البريطانية أبدية ، وما كان يدور فى الخلد أن يحدث أى تهديد للتفوق البحرى البريطانى، وكانت البلاد أرستوقراطية غنية يزداد غناها ، وكانت الاشتراكية تعتبر حزلقة تأتى من قلة من الأجانب ، الساخطين ، السيئى السمعة .

من الصعب على شيخ له كل هذه التجارب أن يحس بالاطمئنان إلى عالم القنابل الذرية ،والشيوعية، والتفوق الأمريكى . إن التجربة التى كانت من قبل عونا على اكتساب الحصافة السياسية تعتبر الآن مُعَطِّلا، لأنها تم اكتسابها فى ظروف مختلفة عن الظروف الحاضرة . ولا يكاد اليوم أن يكون من الممكن بالنسبة إلى أى شخص أن يكتسب مع البُطء نوعا من الحكمة التى كانت فى القديم تدعو إلى احترام الشيوخ ،لأن الدروس المستفادة من التجارب تصبح عتيقة بالسرعة التى يتم فهمها بها . ولم يجد العلم حتى الآن طريقة للإسراع بالتغيرات النفسية ، وعلى الخصوص فيما يتصل بالشعور واللاشعور ، ولكنه على العكس جعل التغيرات الخارجية فائقة السرعة . وقليل من الناس من يطمئن لاشعورُه إلى أية ظروف ، إلا إذا كانت شبيهة بالظروف التى كانت سائدة أيام أن كان طفلا .

وليست سرعة التغيّر إلا واحدا من الأسباب الداعية إلى القلق النفسى ، والسبب الآخر ، الذى ربما كان أقوى من هذا ، هو ازدياد إخضاع الفرد للتنظيمات، وهو أمر نجده حتى الآن ظاهرة حتمية فى المجتمع العلمى .يجب أن تتم السيطرة على النزعات الفردية ، إلا بالنسبة للمديرين فى أى مصنع يشتمل على آلات غالية

الثمن ، ويتوقف العمل فيه على تنسيق أعمال الكثيرين من الناس . وليس هناك أى إمكان للمغامرة ، أو التوقف فى ساعات العمل ، وتقل فرص هذين حتى خارج ساعات العمل بالنسبة لمعظم الناس . إن الذهاب من البيت إلى العمل ، ومن العمل إلى البيت ، يستغرق وقتا ، ولا يوجد فى نهاية النهار أى وقت أو نقود للاستمتاع ، وما يصدق على عمال المصنع يصدق إلى حد ما على معظم الناس فى المجتمعات الحديثة المنظمة . وإن معظم الناس حين تتقدم بهم السن ليجدون أنفسهم فى روتين لا يتخلف ، كالإنسان الذى يردد شطرة معينة من موشح تغنيه جماعة . ويثور أصحاب النشاط من بين الناس ، ويتبلد الوادعون منهم ، فإذا جاءت الحرب ، لم تأت بمخرج من هذه الحالة . وكم أحب أن أرى استفتاء على هذا السؤال : « هل أنت أسعد ، أو أقل سعادة الآن ، مما كنت أيام الحرب ؟ » يجب أن يوجه هذا السؤال إلى الرجال والنساء كليهما . وأنا أظن أننا سنجد نسبة مئوية كبيرة ممن هم أقل الآن سعادة مما كانوا حينئذ .

وتمثل هذه الحالة مشكلة نفسية لا يفكر السياسيون فيها كثيرا . إن من الميئوس منه أن تبنى خططا للمحافظة على السلام إذا كان معظم الناس يفضلون عدم المحافظة عليه . وما داموا لا يعترفون بأنهم يفضلون الحرب — وربما كانوا لا يعلمون أنهم يفضلونها — فسيقودهم اللاشعور إلى تفضيل الخطط البراقة التى لا يحتمل أن تصل بهم إلى هدفهم الظاهرى .

وتنبع صعوبة المشكلة من الصبغة العضوية للمجتمعات الحديثة ، وهى تجعل كل واحد معتمدا على البقية اعتمادا أكبر مما كان فى عهد ما قبل الصناعة . وهذا يجعل من الضرورى أن نكبح جماح النزعات أكثر مما كنا نفعل فى الماضى . ولكن كبح جماح الناس إذا وصل إلى نقطة معنية كان خطرا ، لأنه يسبب الدمار ، والقسوة ، والثورة الفوضوية . ولهذا إذا أريد للأهلين ألا يثوروا غاضبين فيحطموا

ما أنشأوه بأنفسهم ، فيجب أن توجد الوسائل لمنحهم مجالا للفردية أكثر مما يوجد الآن ، بالنسبة لمعظم الناس فى العالم الحديث . ولن يكون المجتمع مستقرا إلا إذا كان على وجه العموم مُرضيا لأصحاب السلطة ، وكان أصحاب السلطة غير معرضين لخطر الثورة الناجحة عليهم . ولكونه لا يستقر كذلك لجأ أصحاب السلطة إلى مغامرات متسرعة ، كالتى قام بها القيصر وهتلر . هذه هى المطرقة والسندان فى المشكلة النفسية ، وليس من السهل النجاء منهما . فليغامر الناس إن شاءوا ؛ ولكن هذه المغامرة لا ينبغى أن توحى بها الانفعالات المدمرة .

نتائج

دعنا الآن نجمع النتائج التى تنتج عن بحثنا فى الأنواع المختلفة من الظروف التى يجب أن تتوفر للمجتمع العلمى حتى يكون مستقرا .

أما بالنسبة للظروف الطبيعية ، فإن الأرض والمواد الخام ينبغى ألاّ تستنفد بسرعة ، لدرجة يتعذر معها على التقدم العلمى أن يعوض الخسارة الناشئة عن ذلك بالاختراعات والمكتشفات الحديثة . فالتقدم العلمى من ثم شرط لا مجرد تقدم اجتماعى ، وهو شرط حتى لإبقاء الرخاء الذى وصل المجتمع إليه فعلا . فإذا توفر للتقدم العلمى منهج لا يتغير ، فإن المادة التى يتطلبها هذا المنهج ستستنفد فى وقت قصير . فإذا أريد ألا تستنفد المواد الغفل بسرعة فائقة ، فيجب ألا تكون ثمة منافسة حرة للحصول عليها واستعمالها ، وإنما ينبغى أن توجد سلطة عالمية لتنظم توزيعها بالمقادير التى تسمح باستمرار الرخاء الصناعى ، ومثل هذه الاعتبارات ينطبق على المحافظة على التربة .

وأما بالنسبة للسكان ، فإذا أريد ألا يكون هناك نقص دائم متزايد فى الطعام ، فيجب أن تجرى الزراعه بطرق لا تفسد التربة ، وألا يزيد السكان على مقادير

الطعام التى يمكن إنتاجها بالتحسينات الفنية ، وليس يتحقق أى واحد من هذه الشروط فى الوقت الحاضر . فسكان العالم يتزايدون ، على حين تتناقص قدرة العالم على إنتاج الطعام . ولا يمكن أن تدوم الأمور على هذا المنوال دون أن تحدث الأحداث الجسام .

ولعلاج هذه المشكلة لا بد من إيجاد طرق لمنع تزايد سكان العالم . وإذا حُدّ من التزايد بطريقة أخرى غير الحروب والطاعون والقحط ، فسيكون ذلك بحاجة إلى سلطة عالمية . وينبغى أن تصرف هذه السلطة الطعام للعالم ، لكل أمة بقدر عدد أبنائها فى وقت إنشاء هذه السلطة . فإذا زاد عدد أية أمة بعد ذلك ، فلا ينبغى أن تحصل بسبب الزيادة على طعام أكثر . ومن ثم يصبح الدافع إلى عدم زيادة السكان دافعا ملحا . أما الطريقة التى تمنع بها الزيادة ، فيجب أن تترك لكل دولة لتقررها حسب ما ترى .

ومع أن هذا هو الحل المنطقى للمشكلة ، فهو فى الوقت الحاضر غير عملى بالمرة . فمن الصعب تماما أن تخلق سلطة عالمية ، وسيكون ذلك مستحيلا إذا كانت هذه السلطة ستتولى مثل هذه الواجبات الكريهة . وثمة فى الحقيقة صعوبتان متقابلتان ؛ فإذا تم الإشراف على توزيع الطعام فى العالم فى الوقت الحاضر توزيعا عادلا ، فإن الأمم الغربية ستقاسى ما قد يبدو جوعا بالنسبة لها . ولكن الأمم الفقيرة من جهة أخرى هى تلك التى يتزايد سكانها أسرع التزايد ، ومن ثم سوف تقاسى أكبر الألم من جراء أى نظام ثابت النسبة فى التوزيع . ولهذا سيعارض العالم جميعه فى أوضاعه الحاضرة هذا الحل المنطقى .

فإذا نظرنا إلى بعيد ، لم نجد من المستحيل بأى حال من الأحوال أن تحل مشكلة السكان نفسها فى الوقت المناسب . فنسبة المواليد فى البلاد الغنية الصناعية منخفضة ، ولا تكاد الأمم الغربية أن تحافظ على ثبات أعدادها . فإذا قدر للشرق

أن يكون فى رخاء ، وأن يتبنى الصناعة كالغرب ، فإن زيادة السكان ستبطىء بالقدر الكافى لجعل المشكلة ممكنة الحل . إن روسيا والصين والهند هى الآن الخزانات الكبرى للتوالد والفقر . فإذا وصلت هذه البلاد إلى مستوى انتشار الرخاء الموجود الآن فى أمريكا ، فإن فائض سكانها قد يتوقف عن أن يكون خطرا على العالم.

وربما قلنا بصفة عامة إن المجتمع العلمى يمكن أن يكون مستقرا فيما يخص مشكلة السكان ، إذا أصبح كل العالم فى غنى أمريكا فى الوقت الحاضر . فالمشكلة إذا هى الوصول إلى ذلك الفردوس الاقتصادى دون نجاح سابق فى تحديد السكان . إنه لا يمكن حدوثه فى الأوضاع الحاضرة دون انقلاب فظيع . ولن يستطاع تغيير العادات البيولوجية لآسيا إلا بدعاية حكومية واسعة . ولكن معظم حكومات الشرق لا ترضى بها إلا بعد الهزيمة فى الحرب . وإن آسيا إذا لم تغير عاداتها البيولوجية هذا التغيير لا يمكن أن يعمها الرخاء ، إلا إذا هزمت الأمم الغربية ، وقضت على عدد كبير من سكانها ، وفتحت الأراضى التى تحتلها هذه الأمم الآن أمام هجرة الأسيويين . وليس هذا المستقبل جذابا بالنسبة للأمم الغربية ، ولكنه ليس من المستحيل أن يحدث . إن الانفعالات والمعتقدات الخاليه من التفكير متصلة تماما بالمشكلة ، لدرجة أنه لا توجد إلا أقلية قليلة جدا ، حتى بين المثقفين ، ترغب فى محاولة التفكير فيها مع التعقل . وهذا هو السبب الأساسى للتنبؤ بمستقبل مظلم .

أما من جهة الظروف النفسية للاستقرار ، فإننا نجد أن من الجوهرى وجود مستوى عال من الرخا الاقتصادى . وسيكون من الممكن فى هذه الحالة أن تمنح الإجازات الطويلة مع دفع الأجور . لقد كان الرؤساء ونظار المدارس قبل قيود النقد يجعلون حياتهم محتملة بمخاطرة الموت فى جبال الألب . فإذا تم السلام الدائم ،

وتناقص السكان ، ووجد منهج علمى فى الإنتاج ، فلن يوجد ما يمنع من جعل هذه المسرات فى متناول كل إنسان . وسوف يكون هناك حاجة إلى اللجوء إلى التوسع فى أشكال الحكومات الاتحادية الفيدرالية ، والاحتفاظ باستقلال ناقص كالذى تستمتع به الآن الجامعات الإنجليزية . ولكننى سوف لا أطيل فى هذا الموضوع ، لأنى عالجته فى محاضرات ريث **Reith lectures** التى ألقيتها عن « السلطة والفرد » .

وأنا أستنتج أن المجتمع العلمى يمكن أن يكون مستقرا إذا توفرت له شروط معينة : أولها حكومة واحدة فى العالم جميعه ، تملك احتكار القوة المسلحة ، وتستطيع من ثم أن تحفظ السلام ، وثانيها انتشار الرخاء انتشارا عاما حتى لا توجد فرصة للحسد من جزء من العالم للجزء الآخر ، وثالثها (وهو يتوقف على تحقق الثانى) نسبة منخفضة فى المواليد فى كل مكان ، حتى يظل عدد سكان العالم ثابتا ، أو قريبا من الثبات . ورابعها العمل على ضمان حرية الفرد فى العمل أو اللعب ، وتوزيع القوة أكبر توزيع يتمشى مع الاحتفاظ بالإطار الاقتصادى والسياسى الضرورى .

والعالم اليوم بعيد جدا عن تحقيق هذه الشروط ، ولهذا يجب أن نتوقع انقلابات عظيمة ، وآلاما فظيعة ، قبل الوصول إلى الاستقرار . ومادامت الانقلابات والآلام ظلت حتى الآن من النصيب المقدور على الإنسان ، فإننا نستطيع الآن ، ولو مع الغموض والتردد ، أن نرى رقيا مستقبلا ممكنا ينتهى الفقر فيه والحروب ، وإذا بقى شىء من الخوف كان مرضا لا ظاهرة عامة . أخشى أن يكون الطريق طويلا ، ولكن طول الطريق لا يصلح سببا للتخلى عن الغاية النهائيه .

فهرس

مؤلفات الجمعية الثقافية المصرية

بإشراف الأستاذ عمر الدسوقي

رئيس قسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم
جامعة القاهرة

صدر منها :

١ — قصة الملكية فى العالم : من سلسلة حياة المجتمعات . تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى ، والدكتور حسن سعفان .

٢ — الرومانتيكية : من سلسلة المذاهب الأدبية الكبرى
تأليف الدكتور محمد غنيمى هلال .

٣ — زرادشت : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الأستاذ حامد عبد القادر .

٤ — كونفشيوس : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تألف الدكتور حسن سعفان .

٥ — الفكاهة فى الأدب العربى (جزآن) : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الدكتور أحمد محمد الحوفى .

٦ — قصة الزواج والعزوبة فى العالم : من سلسلة حياة المجتمعات
تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى .

٧ — تاريخ الفكر الاقتصادى : من سلسلة الاقتصاد السياسى
تأليف الدكتور لبيب شقير .

٨ — بين الشريعة الإسلامية والقانون الرومانى : من سلسلة الدراسات الإسلامية
تأليف الدكتور صوفى حسين أبو طالب .

٩ — ابن خلدون ، منشىء علم الاجتماع : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى .

١٠ — السرقات الأدبية : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الدكتور بدوى طبانة .

١١ — الحريات العامة بين المذهب الفردى والمذهب الاشتراكى : من سلسلة الاقتصاد والسياسة
تأليف الأستاذ طعيمة الجرف .

١٢ — أبو حيان التوحيدى : (جزآن) . من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الدكتور أحمد محمد الحوفى .

١٣ — هوميروس : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الدكتور محمد صقر خفاجه .

١٤ — حقوق الإنسان فى الإسلام : من سلسلة الدراسات الإسلامية
تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى .
١٥ — تهذيب الحيوان للجاحظ (الجزء الأول) : من سلسلة الأدب والنقد .
تأليف الأستاذ عبد السلام هارون .
١٦ — بوذا : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الأستاذ حامد عبد القادر .
١٧ — مونتسكيو : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الدكتور حسن سعفان .
١٨ — أبو حنيفة والقيم الإنسانية فى مذهبه : من سلسلة الدراسات الإسلامية
تأليف الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى .
١٩ — مع الصحفى المكافح : « أحمد حلمى » : من السلسلة التاريخية
تأليف الدكتور أحمد أحمد بدوى .
٢٠ — تهذيب الحيوان للجاحظ (الجزء الثانى) : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الأستاذ عبد السلام هارون .
٢١ — من قضايا اللغة والنحو : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الأستاذ على النجدى ناصف .
٢٢ — الأساطيل العربية فى البحر الأبيض المتوسط : من السلسلة التاريخية
تأليف الدكور ابراهيم أحمد العدوى .
٢٣ — الذوق الأدبى : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الدكتور على محمد الجندى .
٢٤ — تيتو ، حياته وسياسته : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الأستاذ ابراهيم حسن حنبل
٢٥ — بعض مؤرخى الإسلام : من السلسلة التاريخية
تأليف الأستاذ على أدهم
٢٦ — أدباء الرومانتيكية الفرنسية : من سلسلة النقد الأدبى
تأليف الدكتور محمد غلاب
٢٧ — سماحة الإسلام : من سلسلة الدراسات الإسلامية
تأليف الدكتور أحمد محمد الحوفى
٢٨ — عبد الله بن المعتز العباسى : من سلسلة الأدب والنقد .
تأليف الدكتور محمد عبد العزيز الكفراوى
٢٩ — أثر العلم فى المجتمع : من سلسلة حياة المجتمعات .
تأليف الدكتور تمام حسان

الكتاب التالي من هذه السلسلة :

« دراسات أدبية »

بقلم

الأستاذ عمر الدسوقي

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر بالفجالة


مطبعة الرسالة
٣ شارع حموده المقاول - عابدين